المشرق

اصل الدين فلسفياً

لحضرة الاب الخوري بطرس مبارك مدير الدروس في مدرسة الحكمة العامرة

خطابٌ القاهُ في غرفة القراءة

اذا سرَّحنا رائد الطَّرْف في العالم كلهِ وطالعنا اخبار المتجوّلين في جميع انحاء الارض وبين الشعوب المختلفة نرى جامعاً واحداً يجمع الشعوب الحاضرة على اختلاف طبقاتها ولغاتها وعاداتها اعني بذلك الاقرار والاعتراف بوجود عالم حقيقي غير منظور اسمى من العالم الذي نحن فيهِ وبوجود علاقة متبادلة بين هذين العالمين

ثمَّ اذا تصفَّحنا تواريخ الامم السالفة التي وطئت الارض قبلنا ثمَّ حصدتها يد المنون على الطريق التي نحن سالكوها لرأينا ان ذلك الجامع عينهُ كان يجمع اجدادنا كما يجمعنا نحن ايضاً

حقيقةٌ واحدة اتَّفق ويتَّفق فيها البدو والحضَر الهمَج والمتمدّنون الفلاسفة والاميون وفي الجملة فاذا أَصخنا سمعاً الى دوي الاعصر القديمة والحاضرة نسمع اصواتاً تتصاعد من كل جهة صوتاً من المشرق صوتاً من المغرب صوتاً من الشمال والتيمن وهذه الاصوات تلتئم جميعها وتنضمّ بصدًى واحد وهو وجود الدين في كل آنٍ واين حتى لا تكاد توجد مدينة او قرية الَّا وُجد ويوجد فيها معبدٌ هو شاهد عياني على وجود الدين فيها

وذلك حادث عياني ينادي بهِ ارباب الاديان على اختلاف مذاهبهم ويقرّ بهِ

العقليون ولا يستطيع الماديون والطبيعيون الى انكاره سبيلا

هلمَّ بنا ايها الكرام نبحث بحثًا مدققًا عن السبب الذي دفع العالم باسره الى الى ان يدينوا بدين. وعن العلَّة الكافية لهذا الاتفاق الغريب على حقيقة ذات اهمية كبرى نظير الدين الذي عليه تدور رحى اهمّ اعمالنا وعنده محطّ آمالنا

اعلم ان للجواب عن سبب هذا الاتفاق طريقتين: الاولى تاريخية وضعيَّة ومآلها ان الله سبحانهُ اعطى للانسان الاول منع الوجود معرفة وجود عالم غير منظور واوحى اليه اخصَّ حقائق تتعلق بهذا العالم غير المحسوس فتأصل هذا الاعتقاد في الانسان الاول وبواسطته انتقل بالتقليد الى افراد ذرّيتهِ وهكذا الى جميع امم العالم المختلفة

فهذه الطريقة وان صحيحة المبدإ والنتيجة ليست التي اسلكها في خطابي بل توخيت الطريقة الثانية الفلسفية ومآلها على فرض عدم وجود الوحي فهل كان في وسع الانسان على ما هو عليه من الادراك والارادة الحرَّة والنوازع الطبيعية الصحيحة ان يتّصل الى معرفة وجود مقرّ هناء ورغد فوق هذه الارض وادي البكاء والشقاء ووجود سلّم تصل هذه بتلك ؟ فاجيب نعم. والنتيجة تكون لا بدَّ لراحة العقل من الدين كما انهُ لا بُدَّ لتسكين الجوع من الطعام. ولقد سلكتُ في بحثي هذا مسلك لابلاس العالم الفلكي الشهير عندما اراد ان يبيّن من حالة الارض الحاضرة ما امكن ان تكون عليهِ منذ البدء قبل ان تخرج من جوفها الجبال الشامخة وتكتسي بالازهار النضرة والاشجار الخضرة وعلى الله الاتكال (١

ولقائل ان يقول لسنا الآن في الكنيسة حتى نسمع خطابًا عن الدين. فاجيب: ايا تُرى هل وُضع الدين لينحصر ضمن جدران الكنيسة ؟ ومع ذلك ليس تجود يدٌ الّا بما تجد هذه بضاعتنا فان راقت في اعينكم فلكم ولنا والّا فلنا وحدنا

١

اذا امعنَّا النظر في حالة الانسان الحاضرة نراه دائمًا قلقًا لا تستقرُّ لهُ حال ولا يهدأ لهُ بال ما بقي على ظهر الارض حيًّا. وكما ان الامواج المتعددة والارواح المختلفة تتلاعب بالمركب الصغير على سطح البحر ولا تدع ان يقرّ لهُ قرار كذلك الاشغال المتنوعة والعلائق المتعددة مع ما يتصل بامور المعيشة تتنازع حياة الانسان من جهة

١) وكنتُ اود ان ابسط القول في اجزاء هذا الخطاب لكنَّ ضيق المقام يحول دون المرام

ومن جهة أخرى تتلاعب فيها ارياح الانفعالات والعواطف النفسانيَّة فتارةً يجذبهُ الحب وأُخرى يبعده ُ البغض. اليوم تفرحهُ الآمال وغدًا يحزنهُ اليأس. وبالاجمال نرى الانسان من المهد الى اللحد تتقاسم اوقاتهُ وتستغرق ساعات حيـاتهِ حربان حربٌ من الداخل وحربٌ من الخارج. ومجموع هذه العوامل الداخلية والخارجية يدعوها العلماء العـالم الاختباري. لان هذا المجموع موضع اختبار الانسان وموكولٌ لخدمتـهِ ادبيًا ومادّيًا فيسرح فيهِ المرء ويمرح على الرحب والسعة. على ان هذا العالم الاختباري مع اتساعهِ واختلاف مواضيعه يضيق بالانسان فلا يملأ فراغ قلبه ولا يشبع امياله بل تراه غالبًا يلتفت يُمنةً ويسرةً كأنَّ لهُ وراء هذا العالم اغراضًا شتَّى لا يجدها فيهِ ومثلهُ مثـل العصفور المسجون في القفص. نعم يجد هناك مأكلهُ ومشربه مهيَّئًا امامه ولكن تعوزهُ الحرية التي بدونها لا يهنأ لهُ عيش البتة. يتقلَّب الانسان في خيرات هذا العـالم ولكن رعاك الله تغلغلْ الى غَور قلبهِ تجد هناك فراغًا عظيمًا لا تملأهُ خيرات الدنيـا باسرها ولهذا تسمو مقاصده الى العُلى ويطلب راحته من السماء. فلو فُرض الحال ايهـا الكرام والقى الانسان على الارض ما يملأ معدة قلبه الواسعة ويشبع شهواته كلها ويمنحهُ الراحة في هذه الحياة الدنيا لما وُجد الدين في الدنيا بتةً وما رفع الانسان نظرهُ نحو العلى وما كنتم ترون هذه الهياكل المرتفعة ولا هذه المعابد المزيَّنة وأيانَ توصل الانسان بواسطة اكتشافاته وتقدمهِ في المعـارف والفنون الى ان يخرج من بواطن الارض ما يكفيه مؤونةً لسدّ عوزه المادي والادبي ولإشباع عقله وقلبه فذلك اليوم يكون اعظم يوم في تاريخ البشريَّة ويبقى ذكرهُ مثل اهرام مصر على ممرّ الايام والدهور لانهُ يكون الحدَّ الفاصل بين الانسـان والدين. في ذلك اليوم العظيم يطرق الانسان ولا يعود يرفع طرفه نحو العلى فتدق اجراس الحزن على وفاة الدين في اربعة اقطار المسكونة ويدفن الانسان كلَّ دين وكل علاقة مع الله تحت انقاض المعابد كلها. ولكن تشجَّعوا ولا تضطرب قلوبكم ايهـا الكرام لان ذلك اليوم الذي فيهِ يجد ابن آدم على الارض ما يجيب على سؤالات عقلهِ ومطاليب قلبـهِ الذي فيهِ تشبع شهواتهُ من خيرات الارض كما يشبع البهيم من اعشاب الفلا ويذهب فينام خالي البال ناعمهُ ما بزغ ولن يبزغ فجرهُ على بني البشر ما خفق قلبٌ وجال فكر

دعوا الملحدين والعقليين والماديين يترجَّون المحال دعوهم في غيّهم يعمهون ويملقون

آمالهم بحبال من عنكبوت دعوهم يركضون وراء أخيلتهم واذا سمعتم يوماً ان شمس ذلك النهار اخذت ترسل اشعتها الى العالم من فوق قمم الجبال فلا تصدقوا بل قولوا لنفوسكم ان هؤلاء يسعدون بالحلم ويرضون من الحقيقة بالباطل ومن الماء العذب بالسراب. ولماذا شمس ذلك اليوم لن تشرق ابداً. اولاً : لان العقل يطلب جواباً صريحاً من العالم الاختباري عن ثلاثة اسئلة تقف في وجهه في كل آن ومكان كلما اختلى بنفسه كانها اشباح مخيفة ولا يجد لها جواباً مقنعاً ألا وهي: من اين اتيتُ والى اين اذهب وما هي الطريق التي يجب ان اسلكها كي احصل على غايتي. فهذه الاسئلة تنهش عقل الانسان نهش الذئاب الجائعة وتسلب راحته. وثانياً : لان القلب يطلب السعادة الكاملة ولا يجد في عالم الكون سوى اشياء باطلة كاذبة واليكم بيان ذلك مرتباً مفصلاً

(السؤال الاول) من اين اتيت ? سؤال مهم مقلق

اما أنهُ (سؤال مهم) فلأنا نرى الناس يبذلون قصارى الجهد في سبيل انتسابهم الى اجداد شرفاء قد عُرف لهم مجد البأس او مجد العلم او مجد الرتب العالية ويحتفظون بكل اثر يؤيد شرف اصلهم وكرامة محتدهم ويفتخرون بذلك على من سواهم. وما ذلك سوى نتيجة علمهم ان سموّ الغاية مترتب على شرف الاصل. ألا ترى ان المعادن الكريمة كالالماس والزمرد تزين تيجان الملوك ولا يُتخذ الخسيس منها كالحديد والنحاس الّا للاعمال المبتذلة ?

امّا انهُ (سؤال مقلق) فالخواطر يتبع الانسان العاقل اينما حلّ وحيثما توجّه عالماً كان او جاهلاً. فلأنَّ الانسان لا يرى حولهُ سوى علل ومعلولات فلا مسبب بلا سبب ولا معلول بلا علة. يرى لمعان البرق يعقبهُ قصيف الرعد والمطر ينشأ عن تلبُّد الغيوم فلا دخان بلا نار ولا حركة بلا محرّك ولا ابن بلا اب ولا محبوب بلا محبّ ولا حصاد بلا زرع وعلى هذا النمط ينتقل الانسان مدفوعاً بقوة القايسة وبالميل الغريزي الذي يدفعهُ طبعاً الى البحث عن العلة عندما يرى المعلول. الى ان يستفتي نفسه قائلاً: وانا اشرف المخلوقات الارضية القابض على زمام منافعها تُرى من اين اتيت. فلا يرى مجيباً وحينئذٍ يضطرب عقلهُ ويقلق باله من هذا السكوت الرائع بالنظر اليه وحدهُ. يسأل الرياح الاربع يسأل الكواكب والنجوم يسأل شرائع الكون المادية والادبية فلا يجد مجيباً على سؤاله. نعم

أنا نأتي من حيث لا ندري ومن العبث والخطأ ان نطلب الجواب من نواميس التناسل. فهذه وان اجابت عن بعض ما نرغب الجواب عنهُ فانها تقصر عندما تصل الى الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة. لانهُ اذا توصلنا بواسطة التاريخ والتناسل الى ان نصعد الى ابوينا الاولين فالمسألة نفسها ترجع بقوة اعظم. من اين اتى ابوانا الاولان؟ هنا تقف معارفنا الاكيدة. هنا ينقطع حبل مداركنا ويستولي على بصيرتنا الطبيعية ظلام حالك فنبتدئ نخبط خبط العشواء.

وكفاك شاهدًا على ما يأخذ العقل من الارتباك لما يرى من المذاهب في حل هذا المشكل. ومتى تضاربت اقوال الاطباء في شأن المريض فذلك دليل على ان المرض عضال وحياة العليل في خطر. واما تلك المذاهب فليس من وراء عدها الَّا اضاعة الوقت على غير طائل. ومن الآراء القائلة ادعاء جماعة من العلماء ان اصل الانسان من كمال حدث في الطبيعة على ممر السنين والدهور او هو حدث اوجدهُ الاتفاق. اذ كل ذلك ينبذهُ العقل فلو كان في وسع سنة الارتقاء العمياء ان تكون علة لمعاول كهذا عجيب في دقة تركيبه الطبيعي وكامل في صفاته الادبية نظير الانسان لعبدتها واتخذتها لي الهًا. ولو صح ان الاتفاق الف اعضاء الانسان ونظمها ونم باسراره الى الدماغ البشري فجاء على ما هو عليه من احكام الترتيب مع تعدد الاعمال المتباينة لسجدت لهُ وقلت لهُ: ايها الرب ربنا ما اعجب اسمك. ولكن هيهات هيهات ان يصح المنام فهل يخرج من العوسج تين او من الشوك عنب؟ فمن اين لسنة عمياء ان توجد الانسان صاحب البصيرة الوقادة والفكر الثاقب. ومن اين لعدم النظام ان يكون علة لمثال النظام وانموذج الترتيب

وفضلًا عن ذلك فان الانسان كائن مؤلف من نفس وجسد واذا كان العلم والعالم يعجزان عن بيان اصل الجسد على ما تقدم فيها عن بيان اصل النفس الروحية اعجز. اذ من البديهي ان لا يعطي الَّا المالك فمن لا يملك عشرة غروش فكيف يستطيع ان يعطي الفًا ومن ثم يبقى سؤال الانسان عن اصله بلا جواب شافٍ. وكيف يستريح الانسان والحالة هذه واصعب حالات النفس احتمالًا حالة التردد والريب. وكيف ينام خلي البال من يهجس اناء الليل واطراف النهار في البحث عن اصول الاشياء التي حوله. كيف يسكن ضميره وهو الذي يتوسد الكتب ليطلع على اخبار السلف ويقتحم اخطار

السفر ليعلم ما في القطب وهلمَّ جرًّا. ألعلَّ هذه الاشياء اهمّ عندهُ من نفسهِ ؟ فلا غرو اذن ان بقي الانسان قلقًا مهما تكاثرت عليهِ الاموال وتلونت الملذات

(السؤال الثاني) من اين اتيت لا ادري فهل اعلم الى اين اذهب. ان المسافر يسأل اولًا الى اين يذهب كي يسير نحو الغرض لئلا يطيل السير باطلًا وتفوتهُ الغاية هكذا الانسان المسافر على وجه الارض يسأل العالم المختلفة يسأل النجوم السيَّارة والجبال الراسخة والابحر الواسعة الى اين اذهب الى اين اذهب. وما من مجيب. نعم ايها الكرام حسب ظواهر الامر نذهب جميعًا الى اللحد وكما ان المياه المتساقطة على الجبال تنحدر طبعًا الى البحر حيث لا تعود تُعرف هكذا نحن فان قوَّةً لا تُرَدُّ ولا تُدفع تجرُّنا قسرًا الى القبر هناك تتساوى الاحوال وتنتهي الآمال هناك ينحلُّ جسدنا هذا ويرجع كل عنصر منهُ الى اصلهِ. ولكن ما عساهُ يلمُّ بالنفس التي تفوق كلَّ ما هو تحت الشمس شرفًا وجمالًا وبهاءً. هل تموت مع الجسد ؟ وما عساهُ يحل بالنور الطبيعي نور العقل الذي يضيءُ امامنا كمصباح نيّر في طريق هذه الحياة المظلمة ؟ والى اين منتهى ذلك الفكر الثاقب الذي يسابق البرق ويفوق النسيم رقةً واعتدالًا ؟ وهل يضمحلّ ذلك البحر العجّاج بحر العواطف الداخلية والآلام النفسانية التي نشعر بها طيَّ الضلوع ؟ سلوا الجثة عن النفس. سلوا النفس بعد انفصالها من الجسد. اسألوا علماء الطبيعة. اسألوا الفلاسفة. هل نموت كلنا وهل ميتة واحدة للانسان والبهيم ؟ وهل من حياة بعد الموت فالجواب بعد البحث ينحصر في هذه الكلمة: لا نعلم العلم الشافي. وعليهِ فان هذا السؤال « الى اين اذهب » يبقى دائمًا نصب عيني وينخر فؤادي كما ينخر السوس اصول الشجر

على انهُ وان سكت العلم والعالم عن تبيان حالة النفس بعد الموت فالسكوت عن الجواب ليس دليلًا على العدم اذ كم وكم من القوى الطبيعية بقيت ساكتةً مدفونة في اجرام الارض حتى اتت يدٌ حاذقة فاخرجتها الى العيان ؟ فدونكم الكهربائية مثلًا التي تصنع العجائب في ايامنا أما بقيت مطمورة في الاجرام الارضية حتى اخرجها منها كلفاني وفلتا. فالسكوت اذًا ليس هو العدم. ولهذا قال شاتوبريان: الدين زهرةٌ منبتها القبر وليس للقبر معنًى بدون الدين

(السؤال الثالث) من اين اتيت لا ادري الى اين اذهب لا اعلم فهل لي من نور

ينير قدمي كي لا اعثر في طريق هذه الحياة ؟ وهل من مرشدٍ يهديني الى الصراط المستقيم متى اعتسفتُ عنهُ ؟ نعم يوجد نورٌ وهو الضمير (وهنا اختصر الكلام تفاديًا من الملل) وكلٌ يرى ضوءه داخل جنانه ويقرأ من خلاله هذه الكلمات: لا تقتل لا تزنِ لا تسرق حِدْ عن الشر واصنع الخير. وانا دليلٌ عليه لا يُرَدّ وهو ان كل من قصد عمل الشر فانهُ يتطلب الظلمة والخفاء. وعُمَّال الخير يطلبون النور. النسر والباز يملكان الجو مدة النهار واما البوم والخفَّاش فسلطانهما في الليل. الايل والحمل يرتعان في المروج الخصبة بعين الشمس واما الذئب والضبع فيسطوان تحت جنح الليل

على اننا ايها الكرام. وان كنَّا نشعر بوخز الضمير وصوته يدوي غالبًا في اعماق قلوبنا فمع ذلك لا ندري من اين يأتي ذلك الصوت ومن هو الصارخ وهذه الشريعة الطبيعيَّة من سنَّها علينا ومن ينتقم لها او يجازي عنها ان خيرًا فخيرًا وان شرًّا فشرًّا اهو موجود في هذا العالم ام في عالم آخر لا نعلم. نعم قد ظنّ العجم ان ذلك القاضي العادل هو « مِترا » اي الشمس لانها ترى بعينها العظيمة كل ما يحدث على الارض. اما الهنود فزعموا انَّ ڤارونا اي الجوّ هو المنتقم لصراخ الضمير. والماديون اختصروا الامر بانكار مهماز الضمير وبالنتيجة وجود قاضٍ لهُ. غير ان كل ذلك قد سقط اليوم امام العلم الحاضر. رأيتم كيف ان العلم والعالم الاختباري يعجزان عن الجواب على اسئلة العقل فلننظرنَّ الآن اذا كان في وسعهما ان يجيبا على مطالب القلب البشري لكن « تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »

لا يندّ عنكم ان ليس من شيء. وان خطيرًا يلهي خواطر الانسان عن التفكر الدائم بالسعادة ولا من نوازل وان تعاظمت. ولا من مصائب وان تلوّنت تثبِّط الانسان عن انتجاع مناجع الآمال وتعليل النفس ابدًا بحياة اهنأ واسمى من هذه الحياة الدنيا اليها يكون مرجع اعماله ومنتهى آماله ما زال حيًا على وجه الارض سواء كان عالمًا او جاهلًا غنيًا او فقيرًا. ولهذا ترون الانسان يتهافت على خيرات الدنيا تهافت الفراش على الشهاب ظنًّا منهُ انهُ يسدّ بها جوعهُ ويروي عطشه او يجد فيها ما ترتاح اليه نفسه لكنهُ وا اسفاه يرجع دائمًا بصفقةٍ خاسرة. وممَّا يقضي على كل عاقل بالعجب العجاب انهُ كلَّما ازداد المرء انقيادًا لنفسه وتطوّح في ملذات الارض وكسب المال وتحصيل الشرف والسعي وراء الشهوات ازداد شوقًا عظيمًا الى السعادة ورغبةً في

طلبها . ان الاسد يتربص في عرينهِ راصدًا فريستهُ حتى اذا ما هصرها وحصَّل طعامهُ سكن جأشه وبات خليًا مستريحًا امَّا الانسان فانهُ يترامى على الملذات كالايل الظمآن الى المياه العذبة فيشرب كؤوسها حتى آخر نقطة ومع ذلك فلا يروي غليلهُ بل يزداد عطشًا وشوقًا الى السعادة فهو اشبه شيء بالنار التي تزداد سعيرًا كلما ازدادت وقودًا وقصارى القول نرى الانسان من ابتداء حياتهِ الى نهايتها لا يألو جهدًا من السعي وراء خير لا يدركهُ

انظروا البشر يَغزون اديم الارض ناشدين السعادة منذ ثمانين قرنًا . فسَلُوهم علَّهم وجدوها . اسألوا الامرات حيث السرو شامخ برأسهِ نحو العلى من فوق مقابر تضمَّنت غطرسة الانسان اسألوا الاحياء كبارًا وصغارًا اغنياء وفقراء علماء وجهالًا اسألوهم علَّهم وجدوا ما تشتاق اليهِ قلوبهم . فمن المقابر والقصور من المدن والقرى من السماء والارض يرنُّ في اذانكم صوت ذلك الملك الذي قال عن نفسه : « كلُّ ما ابتغتهُ عيناي لم ادعهُ يفوتها ولا منعتُ قلبي من شيء . باطلة الاباطيل وكل شيء باطل » وفضلًا عن ذلك فان الخيرات العالمية كاذبة تغشي بصرنا ببهرجتها الخارجية فنظن ان السعادة بالمجد او بالمال او بالملذات وعندما يتبيَّن لنا انَّا قبضنا عليها نرى انَّا كالقابضين على الهواء نفتح الكف فلا نجد شيئًا نسعد بالحلم ونحزن عند اليقظة ونحن كما نحن مانتون معذَّبون

٢

هذه حالة الانسان ادركها العقل من اول وهلة ولم يتوصل الى حلِّ عقدتها ومعرفة اسبابها فحار في امره وهتف نظير ڤولتير وهو على فراش الموت : « النور النور » ولكن من اين النور بين قوارز الموت والشقاء . واصبح كمن اصابتهُ حمَّى شديدة يتململ على فراشهِ ويتقلب ظهرًا لبطن علَّهُ يجد ما يطفئ احتراقه فلا يجد الى ذلك سبيلًا فصاح من اعماق قلبه مخاطبًا كل ما حولهُ نظير فيلوكتيات لمَّا شكا امره الى الصخور المتناوحة لهُ في جزيرتهِ : أَعدلٌ ان اكون انا وحدي عرضةً للعذاب والآلام والموت . اعدلٌ ان ملحة العالم يكون اقل حظًا من طير السماء وذئب الغاب . اعدلٌ ان البعوضة الصغيرة ودودة الصخر الحقيرة تجدان قوتهما وراحتهما والانسان مالك العالم قلق كريشة في مهبِّ الريح تتنازعهُ عوامل الكدر فلا تُبقي عليه ولا تذر . وانتِ ايتها الطبيعة يا من اظهرتِ ذاتكِ امًّا حنونة لجميع المخلوقات صنعتِ العصفور للطيران فكوَّنتِ لهُ

جناحين والجوّ مجالاً. اعطيتِ ارز لبنان العالي صلابةً تسخر بقوة العواصف العظيمة واوليت زنبق الوادي صلابةً ولينا لمقاومة النسيم الساري فلماذا انت بخست حقّ الانسان وحده . خلقتِ له عقلاً ثاقباً وتركته يهيم في وادي الضلال لا يعلم من اين اتى والى اين يذهب . اعطيته قلباً شعوراً اوسع من الخيرات الدنيوية فامسى كالعصفور الوحيد على الاشجار يفتش عمّا يعوزه فلا يجد . اوّاه ايها الكرام كم هو مؤثرٌ دوي وصراخ اولئك الفلاسفة الذين لم يرضوا سوى الاختبار هادياً . وكم هي محزنة زفرات قلوب اولئك الشعراء الذين لم يعرفوا في غير خيرات الارض سعادةً . وكنت اودُّ ان لا أُسمعكم منها شيئاً لولا ضرورتها لكمال موضوع كلامي

قال جوفروا الفيلسوف الفرنساوي بعد ان نبذ الدين ظهريّاً : « من اين يأتي السلام اذاً كان لا يعلم الانسان من اين اتى والى اين يذهب . وكيف يهنأ العيش متى كان كل ما هو حولنا اسراراً والغازاً . فمن طلب السلام وهو يجهل اين مسيره فلقد طلب المحال »

وقال مان دي بيران بعد ان ذاق مرارة الكفر : « انما اعظم احسان الدين للبشر انقاذُهم من حالة الريب التي هي سمٌّ زعاف للمعيشة وآفة اخترعها العقل لعذابه » . والشاعر جورج فارسي اعترف علناً « انهُ نهك قواه واراق ماء حياته منذ استأصل من قلبه عاطفتي الايمان والمحبة » . وادمون شِرَر الشاعر الالماني قال لاحد اصحابه : « ان الكفر قلّل عدد الخالصين الى السماء . ولكنهُ كثَّر عدد الحزانى والاشقياء على الارض لان الدين هو طبيعيٌّ للانسان » . وغير هؤلاء كثيرون من فلاسفة وشعراء وكتبة الاعصر الخوالي قد افصحوا عن ارتباك العقل واضطرابه ما دام بعيداً عن الدين . فقم ايها العقل وقف عند شاطئ بحر هذا العالم وانعم النظر فيه علّك تجد وراءه ضالّتك . فينقشع ظلام الجهل وتتبدد عن سمائك غيوم الكآبة

ان كريستوف كولومب صاحب العلم الراسخ والفضيلة السامية والفضل العميم لمّا انتج من كرَويّة الارض وقياسها انهُ لا بُدَّ من وجود عالم آخر غير الارض المعروفة وقتئذٍ كان يذهب غالباً الى شواطئ البحر ويرمي بناظريه الى تلك السهول الزرقاء وقد تصاعدت من فؤاده زفرات الشوق الى تلك الديار الجديدة التي لم يكن يراها

ألّا بعين العقل فيوماً ما وجد على الشاطئ اعشاباً لم تكن معروفة في العالم القديم فكانت له بمثابة كتاب مفتوح أرسل اليه من الارض التي كان مزمعاً ان يفتتحها فشدّ مسافراً بين هجمات المخاطر وعند ما لمح عن بعد تلك الاراضي الجديدة هتف وكل من معهُ بفرح لا يوصف: « هوذا الارض هوذا الارض »

هكذا صنع العقل البشري في اكتشافه العالم غير المنظور . بعد ان قاس اطراف هذا العالم الارضي والمادي وعرف انهُ يقصر عن تفسير وجوده الذاتي لكونه حدثاً عارضاً من الممكن ان لا يوجد انتج انهُ لا بد للعالم من موجد خارجي عنهُ ازلي واجب الوجود في ذاته والّا لزم ان يوجد هذا العالم قبل وجوده اذ ترتّب عليه ان يعمل قبل ان يوجد وذلك ضرب من المحال . ونهض عندئذٍ نهضة الابن الشاطر قصد التخلص من الجوع والعري ووقف على شاطئ بحر هذا العالم الاختباري وحدق بباصرته فلاح لهُ من خلال الموجودات انهُ لا توجد غاية بلا وسيلة ولا وسيلة بدون غاية ولا عضو بدون عمل ولا عمل بدون موضوع يوافقهُ ولا عين بلا الوان ولا صوت بلا آذان ولا طير بلا جناح ولا اسد بلا انياب ومخالب وتلك سنّة طبيعية لا تنسخ . وحينئذٍ اشرقت عليه من خلال المقايسة المنطقية هذه الحقيقة العامّة وهي لا بدّ للنوازع الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليه . وعليه فلو لم توجد السعادة حقيقةً لما تمكّن في اعماق قلبي الحي ذلك الميل الذي لا يُغلَب نحو الحصول عليها . فمن الضرورة اذاً ان توجد في مكان ما ولا بُدّ من ان احصل عليها عاجلاً او آجلاً لانّ من اوجدني عادل وسنن الطبيعة احكام عامة لا يُفلَت منها ولا تقبل الاستثناء . والحال اني لا اجدها على الارض فاذن لا بُد من وجود عالم آخر غير العالم المنظور اجد فيه ما يشفي أُوامي ويسدّ وهاد فؤادي العميقة . اذ لا بدّ للنوازع الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليه . وعلى هذه المنوال عرف ايضاً أنهُ لا بد من الوصول الى جواب مقنع على سوالات عقله الصوابية واذا كان لا يتسنى لهُ ذلك في هذه الحياة الدنيا كما ذكرنا فلا بد من حياة اخرى حيث يعلم من اين اتى والى اين يذهب ومن ينتقم لصراخ ضميره او يجازيه على ما يفعلهُ من الصلاح فعلى سلّم هذه الحقائق صعد العقل وحام مثل النسر وحدق ببصره الحادّ الى ما فوق واخذ يجول في فسحات ذلك الجو الصافي جولان الهائم وما ارتفع الحجاب وظهرت امام بصره تلك الفسحات المظلمة وانقشعت تلك الغيوم المتلبدة عن ذلك العالم الجديد

حتى صعدت من صميم قلب الانسان ترانيم الفرح والابتهاج فهتف مثل مريم اخت موسى عند خروج بني اسرائيل من بحر الاحمر ومن عبوديّة المصريين « الرب عزي وتسبيحي قد كان لي خلاصاً » (١) فتدفقت عليه الانوار وانكشفت من كل جهة وظهرت لهُ اسرار وجوده وعرف ان القادر على كل شيء قد ابدعهُ من العدم الى الوجود وان اليه مرجع اعماله وغاية آماله وهو مشترع ضميره وموضوع سعادته القصوى. فعلى هذا القياس المنطقي كان العقل ارتفع رويداً متدرجاً بالحقائق لو لم يوجد الدين يكفيه مؤنتهُ ويهديه الى سواء السبيل ولو افترضنا عدم الدين حقيقة كان العقل قد اخترعهُ على النمط المذكور لان الدين ضروري لراحة العقل كما ان القوت ضروري لراحة الجائع ولهذا نرى الناس قد اتفقوا على الدين كاتفاقهم على ضروريات الجسد كالمأكل والملبس والذود عن العرض وحبّ الوطن وهلمّ جرّا

ومالي والاسهاب في حقيقة وجود الدين امام كرام رضعوا مبادئهُ مع الحليب فنشأوا عليه . يفضّلون الدين على كلّ خيرات هذا العالم ويفتخرون في انهم حفظوا وديعة الايمان وصانوها من كل شائبة الضلال . لا زلنا واياكم محافظين على هذا الكنز الثمين الذي فيه وحدهُ سعادة المرء وخلاص الشعوب

١) خروج ف ١٥ عد ٢

الدَّاوُدة او الدَّاوُديون

لحضرة الكاتب المتفنن البارع الاب انستاس الكرملي

(١ً تمهيد) قد لاحظ احد المشتغلين بعلم الاديان ان في البلاد السهلة المنبسطة الاياديم والمبذتها تكثر الديانات الكبار العديدة الاتباع والاشياع وتقلّ فيها الاديان الصغيرة او الفرق الفرعية المتضاربة. الّا ان هذه النِحَل والبدَع المتفشية تتأصل بعكس ذلك في الحزون والاراضي الجبليــة فتتمكن فيها كل التمكُّن وربَّما زادت تفرُّقاً وتشعباً وتجزُّءًا كلما زادت الجبال شماخاً ومناعةً ووعورةً. وسبب هــذا الاختلاف واضح لكلّ متبحِّر وهو ان السهليّين يسهل عليهم مخالطة بعضهم لبعض لتجاورهم وتقاربهم وكثرة المواصلات بينهم فتتوحَّد الجامعــة بينهم وتربطهم ربطاً محكماً لِما يكثرون من تجاذب اطراف الكلام وتداول الحقائق التي لا بدَّ من ان ينقدح لهم نارها اذا كانت الغــاية مجرَّدة عن كل سوء نيَّة او وهم سابق متأَصل في العقول. وزد على ذلك انهُ اذا حدث اضطهاد فريق لفريق آخر يدين بغير دين الاول سهل على المشدّدين قتل الضيِّقين واحراق كتبهم والتنكيل بهم وجعلهم مثلةً للمعتبر وربَّما اكرهوا كثيرين منهم الى التشبُّث بمذهبهم. واماَّ اهل الجبــال فلقلَّة المواصلة بينهم وصعوبة اجتماعهم ومخالطتهم بعضهم لبعضٍ تبقى كل عصابة على معتقدها الذي ولدت فيهِ او جاءت بهِ من السُّهول زمن اضطهادها فضلاً عن ان اصحابهــا اذا اضطُهِدوا يجِدون في الجبال حصوناً منيعة طبيعيَّة أمنع من الحصون البشريَّة فيكونون فيهــا في احرز حرز ويصعب تتبُّعهم وتأثرهم فيبقون على حالتهم ما شــاء الله. واذا حاربهم اعداؤهم ناوأوهم ووقفوا بوجوههم بقلبٍ كانهُ قُدَّ من جُلمود وصبروا على تحمُّــل المتاعب والمصاعب والمصائب بنوعٍ لا يحتملهُ اهل السهول. لان هواء الجبال والعيشة فيهــا قد روَّضت اجسادهم ونشَّأَت قُواهم وابرزت مكنونات فضــائلهم الطبيعيّة واضعفت رذائلهم الحيوانية بحيث تمكِّنهم من اهل السهول الذين ليس لهم مثل هذه المناقب الغريزيَّة او لضعفها فيهم. وعليهِ فالجبليُّون اشداء جسماً وحلماً وارادةً وفعلاً

هذا وليس من بلادٍ يصدق فيها هذا الكلام مثــل بلادِ الكرد او كُردِستان إذ

ما من ديانة او بدعة او فرقة الّا وترى فيها اناساً يقولون بها بل وفيها مللٌ ونِحَل وبدع لا تُوجد في غير تلك الديار وهو ما قد اوضحناه غير مرّة في المشرق الزاهر. واليوم نطرف قرّاء هذه المجلّة بتعريفهم ديانة أخرى لم يسمعوا بها ولم يقرأوا عنها في سفر من الاسفار العربية او الاعجمية وهي الديانة الداوديّة

٢ (تعريف الداودة) الداوُدة او الداوديون (ولا تقل الداوديّة لان هذه التسمية قد غلبت على طائفة من الاكراد مختلفي الاديان) قومٌ من عُنصرٍ كرديّ يقولون بانهم يتبعون داود النبي ويفضلونهُ على سائر الاولياء ويجعلونهُ في مقدَّمتهم من جهة سموّ المقام والدرجة. والسبب في اعلاء شأنهِ عن سائر الانبياء انهم يقولون: ان هذا النبيّ بالغ في عبادتهِ لله عزَّ وجل وخدمهُ بغيرة عظيمة ولذا استجاب تعالى دُعاءهُ ووهبهُ اعظم ابنٍ وُجد على الارض (اي سليمان الحكيم) وتنبّأ اعظم النبوّات وجعلهُ من اعظم ملوك الارض واعطاهُ قوَّة غريبة في ابادة اعدائهِ. فاذا كان الله قد رقّاهُ هذه الدرجة الرفيعة من الاجلال والاكرام أيحقّ للانسان بعد ذلك ان لا يقتدي بربّهِ وخالقهِ ويجلّ من يجلّهُ ويذلّ من يذلّهُ

٣ (بلادهم وعددهم) هم مبثوثون في نواحي خانقين (وتُلفظ هذه الكلمة هناك خانجين باسكان النون بعدها جيم مكسورة) ويكثرون في بلدة اسمها «كِرِنْد» او «إكِرِنْت» على بُعد خمسة فراسخ من خانقين. وفي الجبال المجاورة لهذه المدينة. ويبلغ عددهم اليوم تسعة آلاف بيتًا لا غير. ويدَّعون انهم كانوا كثيري العدد في الزمن القديم الّا ان اضطهاد مجاوريهم لهم اباد طوائف عديدة منهم وتبدَّدت البقية تحت كل كوكب لكنَّ هذه السنين الاخيرة اجتمع بعضهم في مدن وقرى متجاورة من تلك الاصقاع. وبقيت فرقة منهم أخرى في مَنْدَلي (مدينة على بعد ١٧ ساعة من بغداد شمالًا) وعُرفت هناك باسم «مير الحاجّ» والواحد منهم «مير الحاجي»

٤ (لغتهم) هي فرع من اللغة الكرديّة وقد دخلها الفاظ كثيرة من الفارسيَّة والعربية وبعض التركية. وهم جميعهم يُحسنون التكلم بالفارسية وقليل منهم يعرف العربية

٥ (كتابهم المنزل وشيء من عقائدهم) للدوديين كتاب منزل هو «الزُبور» ولا يُطلعون عليه احدًا ممَّن ليس من دينهم الّا ان واحدًا من النصارى كان قد ادَّى خدمًا

جزيلة الى الشيخ الاكبر فوعده بان يُريهُ الكتاب المذكور وعيَّن لهُ اليوم والساعة فجاءهُ في الوقت المعيَّن وأراه اياهُ فوجدهُ عبارة عن وريقات مكتوبة باللغة التركية وبحروف عربية. وهي حقيقة مزامير داود النبي الّا ان التصحيف والتحريف كثر فيها. ولا شك ان هؤلاء الاقوام قد حصَّلوا نسخةً اصلية في سابق الزمان من احد النصارى فنسخوها عندهم

• وممَّا روى لي عن دينهم احد النصارى المتكلكين وهو من ابناء هذه البلاد قال: ذهبتُ يوماً الى مَنذَلي لابيع نُسخاً من التوراة وكان عندي منها من كل لغةٍ فبينما كنتُ ذات يومٍ جالساً في حانوت يهودي وكان بجانبهِ رجلٌ بزيّ مُسلمي تلك البلدة اشترى اليهودي نسخةً من التوراة العبرية ثم قال لي: ولماذا لا تبيع لهذا الرجل (واشار الى صاحبهِ) توراة بالتركية. فاعلم ان صاحبي هذا ليس مسلماً بل داوديًا الّا انك لعلَّك لم تسمع باسم الداوديين هنا وقد اصبتَ لانهم لا يُعرفون هنا الّا باسم «مير الحاج» وهم اقوام لا يعتقدون الّا بنبوة داود الملك. ثم التفت الرجل الغريب نحوي وقال لي: أأنتَ نصراني. قلتُ: نعم. قال: فان كنت كذلك فانت من قرابتي في الدين لان النصارى يعتقدون بنبوة داود الملك ونحن كذلك فتعال معي واصحبك الى شيخي. فقلتُ: سمعاً وطاعةً. فاخذني ومضى بي الى شيخهِ وبعد ان تعارفتُ معهُ بعتُهُ نسخة من التوراة باللغة التركية. ثم سألتُهُ: الى اي دين ترجع فرقتكم. قال: ليس ديننا من الفرق الاسلامية وانما هو دين قديم مستقل بنفسهِ وكان اصحابنا منذ ايام نبينا الملك داود ولنا شريعة تنهانا عن كل منكر من سرقة وقتل وزنى وغيرها وتلزمنا بعمل الصالحات واجتناب الطالحات واننا لا نعتقد بشيء من معتقد غيرنا. وبعد ان تجاذبت والشيخ اطراف الكلام ودَّعتهُ وانصرفتُ. الّا انهُ طلب مني ان آتيهُ يوماً آخر ليُطلعني على بيت صلاتهم. فلمَّا كان اليوم الموعود ذهبتُ اليهِ فلمَّا دخلتُ عليهِ قال لي: إتبعني. فتبعتُهُ وبعد ان سرنا بضع دقائق ادخلني غرفةً عظيمة قد عُقِد في وسطها قُبَّة حسنة البناء. وكان في صدر الغرفة صندوق من خشب طولهُ ٥ أمتار في عرض مترين وعلوهُ متر و٢٥ سنتيمترًا. وكان على هذا الصندوق غطاء اخضر من نسيج القطن يُجلّلهُ من الجهة الواحدة الى الجهة الاخرى وفوقهُ مسارج كثيرة مُطفأة قد غطَّت الصندوق كلهُ. وجميع تلك

المسارج من الطين المشويّ وقد دُهِنت بدهان مختلف الالوان من اصفر واحمر واسود واخضر وازرق وابيض. فسألتهُ . ما هذه المسارج . قال : هذه بمنزلة مصابيح توقدها في وقت الصلاة واذا بلغنا وسطها اطفأناها. فقلتُ لهُ : هل لكم كتاب مُنزَل. قال: نعم. وهو كتاب الزبور. ومحصَّل ما فيهِ معرفة الله وتوحيده وانهُ يحرم علينا كل كبيرة الّا القتل في بعض الاحيان وذلك اذا قتل واحد من اعدائنا احد المتديّنين بديننا فيحلُّ قتالهُ بايدينا. وبعد ان كلَّمتُهُ هنيهةً من الزمان ودَّعتهُ وانصرفتُ

وليس للداودة يوم خصوصي يرصدونهُ لخدمة الله بل يعتبرون الأيَّام كلها سواء وجميعها مقدَّسة

وهم يحبُّون محبةً عظيمة يسوع المسيح ويعتقدون بنبوتهِ الّا انهم يجعلونهُ دون داود الملك. ولكونهم يحبُّون المسيح فهم يحبون ايضاً جميع النصارى على اختلاف فرقهم. واذا رأوا نصرانياً يقرأ في كتاب ويذكر اسم داود الملك اخذوا الكتاب من صاحبهِ برفقٍ ووضعوهُ على رأسهم اجلالاً للنبيّ الملك

والحكومة لا تأخذ منهم عسكريَّة او نحو ذلك من الضرائب المشهورة. وهم دائماً متجمعون في محلَّة خصوصيَّة بهم لا يختلطون مع غيرهم ويقيمون في اغلب الاحايين في ضاحية المدينة او البلدة

ولا يحلّ لاحد منهم ان يتزوَّج باكثر من امرأة (١ ولا يجوز عندهم الطلاق

---

١) قرأنا في مقالة لغة الجرائد (ص ٤٩) : « و يقولون : رأيتهُ اكثر من مرَّة وجاءني اكثر من واحد. ومقتضاهُ اثبات الكثرة للمرة والواحد لان المفضَّل عليهِ في معنًى من المعاني لا بُد ان يشارك المفضَّل في ذلك المعنى. فقولك : بكرٌ اشرف من خالدٍ يتضمَّن اثبات الشرف لخالد مع زيادة بكر عليهِ والظاهر ان هذا التعبير منقول عن التركيب الافرنجي. والعرب يستعملون هنا لفظ غير يقولون : رأيتُهُ غير مرَّة وجاءني غير واحدٍ. لان غير الواحد لا بُدَّ ان يكون اثنين فما فوق. » اه بحرفهِ. قُلنا : ١ً ان هذا التركيب ليس بافرنجيّ لان العرب قد استعملوهُ قبل مخالطتهم الافرنج كما سنوردهُ من الشواهد على ذلك. ٢ً ان معنى « أكثَر من » في مثل هذه العبارة ليس للتفضيل كما توهَّمهُ حضرة المنتقد لان ليس كل ما جاء مُفرغاً بقالب « أفعل » يُفيد التفضيل كما هو ظاهر. وقد نبَّهَ على ذلك ابن عابدين الدمشقيّ في كتابهِ « الفوائد العجيبة في اعراب الكلمات الغريبة ». اذ قال : « وافعل التفضيل (في مثل هذا التعبير) يُفيد بُعد الفاضل من المفضول وتجاوزهُ عنهُ « فمِنْ » في مثلهِ ليست تفضيليَّة » اه المقصود ذكرهُ. ٣ً جاء في محيط المحيط في مادَّة غ ي ر « وقولهم غير مرَّة اي اكثر من مرَّة واحدة » فلو لم يجُز هذا التعبير لما قالهُ. ومثلهُ

السنة. الّا انهم يختنون اولادهم. وهم لا يرون في اكل لحم الخنزير ما يحرّمهُ بل يفتخرون باكلهِ ويغالون بلحمهِ. وكذلك يجيزون شرب الخمر وسائر المسكرات الّا انهم لا يسكرون وهم يستطيبون الخنوق والميتة والدم كلّما حصل بيدهم

والكذب عندهم محرَّم كل التحريم ولو هُدِّد الانسان بالقتل. وتعظُمُ خطيئة الكذب اذا كان السائل يقول لهُ: عليك «بسبعة ثيران داود». او «باربعين ثور داود» (كذا ولا اعلم ماذا يريدون بهذه الثيران) واعظم قسَم عندهم قولهم: «بحقّ نَيّ داود». ومن محرَّماتهم السرقة ولو كانت الاشياء تُسرق من الفرق المعادية لهم كل المعاداة. ومن محرَّماتهم ايضاً بدء شغل من اشغالهم بقولهم: «بسم الله الرحمان الرحيم» وهم لا يقبلون من اسماء الله الّا لفظة «العليّ» وانما ذكرنا هُنا اسمهُ تعالى باللفظة المعهودة في كلام الشيخ مع النصرانيّ تخليصاً ايّاهُ من عُقَد الكلام الغير المألوفة على السمع. ومن محرماتهم ايضاً الصوم والصلاة بالفاظ يتعلمونها استظهاراً. ويقولون ان العليّ (الله) يكره هذا النوع من الصلاة

وهم يعتقدون بالتناسخ والتقمُّص ويقولون ايضاً ان الانسان اذا تمَّ تخرج روحهُ من سجن الجسد وتطوف الارض وهي مع ذلك لا تنفكّ عن مراقبة الجسد حتى اذا

قال صاحب اقرب الموارد ونصّ عبارتهِ: «فعلَهُ غيرَ مرَّة اي اكثر من مرَّة». ٤ً اليك بعض الشواهد من اقوال ائمة العرب. قال عبد اللطيف البغداديّ في وصفه للأهرام: وعند هذه الأهرام «باكثر من غلوةٍ» صورة راس وعنق بارزة من الارض في غاية العظم يُسمّيهِ الناس ابا الهَوْل». وقال السيوطي في كتاب الاشباه والنظائر في اللغة في كلامهِ عن الضرورة نقلاً عن السيرافي والرضيّ: «ومنها لا يجوز الفصل بين امّا والفاء «باكثر من اسم واحد». اه. وقال في الاتساع: «وهل يجوز ان يتوسع في الفعل «اكثر من واحد» بان يتوسَّع بهِ في الظرف ثم يتوسَّع في المَصدر. وكذا يجوز ان يقال «اقلّ من واحد». قال الثعالبي في ثمار القلوب في مادَّة «ميدان الخلفاء»: «ما عاش بعدها الاَّ اقلّ من سنة». ٥ً نحبُّ ان يُذكر لنا كيف يُعبَّر عن هذا المعنى وهو «لا يحلّ لاحدٍ منهم ان يتزوَّج باكثر من امراة» فان قيل: «ان يتزوَّج بغير امراةٍ» قلنا وهل يمكن ان يتزوَّج الانسان بغير امراةٍ وان كان يجوز لهُ فهو من غرائبهِ. وعلى كل فان فُصَحاء الكتبة في مثل هذا الكلام لم يستعملوا الاَّ ما اخذناهُ عنهم. قال في طبقات الأطبَّاء (١: ١٢٥) «نحنُ معشر النصارى لا نتزوَّج باكثر من امراةٍ واحدةٍ». وكذلك أورد هذا النصّ ابن العبريّ في كتابهِ تاريخ الدول (ص ٢١٥ من الطبعة الصالحانيَّة). وانت تعلم ان ابن العبريّ هو من الكتبة المبرزين في العربيَّة

ائتئت جولانها عادت الى مقرّها من الجسد فيستيقظ الانسان ويرجع الى حالهِ الاولى وامّا ما يرى من امارات الحياة في جسمهِ في حالة النوم فهي علامات تدلّ على ان النفس لا تغادر الجسد بتاتًا بل ترجع اليهِ بعد ساعاتٍ. وقد ابقت ثانيًا عنها «النَّفَس» (بالتحريك) فهو يدخل ويخرج منعًا للوهم في الناظر الى الجسد

ومّما يشدّدون في تحريمهِ الحجّ الى المزارات ومقامات الاولياء كالمشهد والنجف وكربلاء وغيرها

هذا وفي ديانتهم اسرار كثيرة لا يبوحون بها الَّا لمن بلغ سنّ الرجولية ولذلك فهم يخفونها على اولادهم ولا يلقنونها اياهم الا عند ما يكتهلون

٦ (شيوخهم) هم رجال فضلاء عقلاء يبتعدون عن كل سيئة ويدّعي جميعهم بالسيادة لكونهم سلالة النبيّ داود الملك

٧ (اخلاقهم وعوائدهم) من عوائدهم المشهورة اكرام الضيف فهم يعظمونهُ ويجلونهُ ويقومون بجميع واجباتهِ ويلاطفونهُ احسن الملاطفة واذا اراد الانصراف زوّدوهُ بكل ما يحتاج اليهِ في السفر وشيّعهُ عدد غفير منهم ليحافظوا على حياتهِ عند الحاجة. ألا انهُ مما يجب على الزائر هو ان لا يتلفّظ ابدًا بالبسملة. وقد روى لي بعض الثقات الخبر الآتي قال: نزلتُ عند بعض اصدقائي من اهل هذه الفرقة ولمّا حان وقت الغداء مُدّت السفرة ووُضعت الوان الاطعمة فتقدّم المدعوّون واصطفّوا حول المائدة فحينما مُدّت الايدي قلت من فوري: « بسم الله » وما كادت هاتان اللفظتان تخرجان من شفتيّ الّا والايدي قد جُذبت فجأةً فاندهشت من عندي ورأيتُ جميعهم ينظرون اليَّ باوجه قد بدت عليها العبوسة والاستياء. ثم قالوا لي بصوتٍ واحدٍ: « ارفعوهُ » فاخذتني الدهشة وبقيت أحيَرَ من ضبٍ وأولهَ من صبٍ. ثم قلتُ: « ما وراءكم يا ناس ». قالوا: لقد حُرِم علينا هذا الطعام بما نطقت من الكلام وحُلِّل عليك وحدك فكُلْ من الالوان ما شئت. لكن اذا اكلتَ ثانيًا قرنًا منّا فاياك ان تنطق بما تفوّهت بهِ الآن. فاستغربت الامر في نفسي وآليتُ على نفسي ان لا أُواكل داوديًا

ومن اخلاقهم الحمية الدينية والغيرة الجنسيّة والارتباط برابطة الاخاء والمحبّة. وهم يشدُّ بعضهم أزْرَ بعض واذا نكبهم الزمان بنكبةٍ تضافروا فيما بينهم وانتشلوا المنكوب للحال ورفعوهُ الى درجة المساواة لاصحابهِ

ومن عوائدهم انهُ لا يجوز لاحدٍ من رجال هذه الفرقة ان يقصَّ شيئاً من شاربيهِ لان ذلك عندهم اثم عظيم. اماَّ اللحية فيجوز قصها بالمقص لا غير وتمشيطها بعد ذلك

واغلب الناس الذين ليسوا من فرقتهم في تلك الانحاء يجلُّونهم اعظم الاجلال ويتوقَّعون منهم اجلَّ الكرامات واعظم الآيات وذلك لما وسموا بهِ من الصدق والنزاهة وعُرفوا بهِ من الامتناع من الكذب والسرقة وسائر العظائم. ومما يروى من كراماتهم انهُ يُحمل الى اكابر ساداتهم كلُّ من جُنَّ او عضَّهُ كلب كَلِب فيضرب السيد مريضهُ بكفهِ البريئة (حسب روايتهم) والحال يعود الشفاء الى المريض. وكذا قل عن من أُصيب بالفالج او باللَّقوة فلا دواء لهُ الاَّ الصَّفعُ او الصَّقعُ او الصكُّ او اللطمُ حسب مقرّ الداء او تحكيم الدواء.

٨ً (لباسهم) لباس الرجال كلباس اهل البلاد الموجودين فيها واماَّ لباس النساء فغريب جداً. فانهنَّ يلففنَ على رؤوسهنَّ عمامة عظيمة ويلبسنَ درعاً يختلف ظاهرهُ عن درع سائر النساء ولذلك لا يصعب على احد تمييز نساء هذه الفرقة من نساء بقيَّة الاديان

٩ً (سحنتهم وملامحهم) قد قلنا ان الداوُدَة من عُنصرٍ كرديٍ. وهذا العنصر وان كثرت تأَثيراتهُ الاَّ ان العلامات العظيمة المميّزة لهُ تبقى واحدة في جميع فروع هذه الطائفة وشُعَبها. واعظم هذه الفصول هيئة الجمجمة. فان الغالب في رؤوسهم الفَطَح(١) وان كان فيهم صُعَلٌ(٢) كثيرون. الاَّ ان القياس يتمشَّى على الاغلب كما لا يخفى.

---

(١) و(٢) الفَطَحُ يقابلهُ بالافرنجية brachycéphalic والصفة منهُ «الأفطَح». وهو العريض الراس (عن اللنويين) ويُراد بذلك المستدير الجُمْجُمَة او الذي يكاد يكون مستديرها وهو نقيض «الأصعَل» dolichocéphale وهو الرقيق الراس (جمهور اللنويين) والدقة تكون في الطول اكثر مما تكون في العرض

والأفطَح عند الباحثين عن سلائل البشر من كان عرض راسهِ اعظم من طولهِ. وبعبارة اخرى: من كانت فيهِ نسبة القطر المستعرض الى القطر المقدَّم الخَلْفيّ تتردَّد بين الكسر ٠,٨٠ وصحيحه. وفي السلالة البيضاء أقوام فُطْحٌ مبثوثون على وجه الارض كلها. منهم: التركمان والكَلْمُوك في آسيَة. والجرْيون والفنلَنْديُّون والبريطانيون والسابوديُّون والارلنديون في اوربة. وذوو الجلود الحمراء والاسكيمو في اميركة. والزُنوج والمُسَوَّدُون في اوقيانية (نُريد بالمسوَّدين ما يُسميهِ الافرنج négritos وهم طائفة من الزنج قيل انهم

وعليهِ فعلامة الجمجمة المميّزة لهم هي ٨٦. — امّا بقيّة تقاطيعهم فراجعها في آخر مقالة تفكهة الاذهان (المشرق ٥ : ٥٨٢) واما الذي يميّز هؤلاء الناس عن بقيّة اقوام الأكراد فهو انهُ يُرى على سيماهم عنفوان الذل والخضوع وامارات التخوّف والتهيّب ألّا ان هذه الدلائل لا تُزيل ما في مجموع ملامحهم من آثار المآثر والفضائل ممّا لا ترى لهُ اثرًا في طوائف الاكراد

والخلاصة ان في مجموع تقاطيعهم مسحة تترجم عمّا في آدابهم من العفّة والزهد في اللذات الدنيئة السافلة بخلاف ما قد اشتهر بهِ اغلب الكُرد من هذا القبيل والسلام

اسداد النيل الجديدة

للاب بطرس دي تراجيل اليسوعيّ

٤

فبعد كل ما سبق شرحهُ من اختيار موقع موافق لسدّ النيل في اسوان ارسلت الحكومة المسيو وِلكوكس (Mr W. Willcoks) لمراقبة المكان ونظر صلاحيّتهِ فكتب في ذلك المقالات الطويلة هو وناظر الريّ الكولونيل روس والكولونيل مُنكريف نائب الكتابة في وزارة النافعة لكنَّ آراءهم كانت متضاربة متباينة في تعيين نقطة العمل مع اتّفاق اكثرهم على اسوان واسيوط دون غيرهما

وممّا ثبّط مباشرة الشغل واخّرهُ دَيْنُ الخزينة المصريّة وخوف اصحاب ادارتهِ

تولدوا من اختلاط الزُنوج الاصليين بالبيض على تناسبٍ مختلف وهم ليسوا سُودًا في الأصل بل انما صاروا سودًا او اسودُّوا بالامتزاج ومرّ الزمان)

واما الأصعَلُ فهو من تردَّدت في جمجمتهِ نسبة القطر المُستعرض الى القطر المقدَّم الخلفيّ بين ٧٢ و ٧٦ ومن الصُعْل في السلالة البيضاء الآريُّون الحقيقيُّون (كالهنادكة والفرس والافغان وألمان الشمال والانكليزُ الصكصُون والزمنديون والالزاسيون وغيرهم) وكذلك الساميُّون (كالعَرَب واليهود) واما بين الزنج فاغلب الأجيَال الكُبرى صَعلاء . وبين الصُعْل والفُطْح أقوام وَسَطٌ mésaticéphales وهم متولدون من امتزاج الصُعْل بالفُطْح

من نفقات جديدة لاسيَّما ان مصاريف المهندسين الانكليز كانت قد بلغت في العشر السنين الاخيرة ٣,٢٥٠,٠٠٠ جنيه لمصالح عمومية شتَّى أفما كان ذلك كافيًا ؟

وكانت الدول الكبرى ايضًا تعارض هذا المشروع لغاية أُخرى وهو حرصها على آثار جزيرة فيلة وهياكلها الشهيرة وخصوصًا على تحفة هندسيَّة يتقاطر الزوَّار الى مشاهدتها وهي الكشك الذي نجز بناؤهُ على عهد الملك طرايانوس. ولمَّا كانت هذه الجزيرة فُوَيق الجنادل الاولى (انظر الصورة في المشرق ٦ : ٧) فمياه الخزَّان بارتفاعها عند اسوان ستغمرها لا محالة في مدَّةٍ قسم من السنة. فكثر لذلك القال والقيل وكتب اصحاب الجرائد المقالات الشديدة اللهجة رشقوا فيها المهندسين بألسنة حداد ونسبوهم الى الهمجيَّة بتدمير ابنية تُعدُّ من آيات الهندسة القديمة. فتشكلت لجنةٌ من علماء العاديَّات للنظر في صيانة هذه الآثار الخطيرة فذهب كلٌّ مذهبهُ دون ان يتَّفقوا على رأي

وفي اثناء ذلك كان المسيو ڤيلكوكس لا يزال يقرّب المشروع ويُثبت منافعهُ الاقتصاديَّة ويبعث الهمم الميتة للسرعة في مباشرته حتى تقرَّر الامر في سنة ١٨٩٨ وقدَّم السير كاسل (Sir E. Cassel) ومحل ايرد (J. Aird) وشركائه في ليڤربول ما يحتاج اليه العمل من المصاريف وكان الشرط ان يبنى سدَّان الواحد في اسيوط والآخر في اسوان في ظرف خمس سنوات. وهما السدَّان اللذان انجزها العملة آخرًا تحت نظارة المسيو ڤيلكوكس ثم المسيو ڤاب (A. Webb)

(سدّ اسيوط) فلنبدأ اوَّلًا بوصف هذا السُّدّ الذي بُوشر فيه في شتاء سنة ١٨٩٨. وطول هذا الخزَّان يبلغ نحو ٨٠٠ متر وهو يتركَّب من ١١١ قنطرة بينها تُرع سعتها خمسة امتار ونصف تُقفل بابواب من حديد ورصيف الخزَّان مع قناطره راكز على سطح سمكهُ ٣ امتار و٤٠ س في ٢٩ مترًا عرضًا يصونهُ سورٌ من اساطين معدنيَّة متواصلة مغروسة في الارض الى عمق سبعة امتار تحت قاع النهر لئلَّا تتحلَّب المياه الى الاساس فتنقضهُ او توهن دعائمهُ كما حصل في خزَّان الدلتا وكذلك فُرش مسيل النهر وجانباهُ ببلاط تُلفط بالخزف لئلَّا تنفذ المياه اليه. امَّا علوّ السدّ فوق السطح المذكور فهو ١٨ مترًا و٧٠ س

قال السير باكر (Sir B. Baker): ولعلَّ الذي يرسم صورة الخزَّان على القرطاس

لا يرى في الامر مشقَّةً ولكن شتَّان بين النظريَّات والعمليَّات . فانَّنا في طول مدَّة الشغل اضطرَّتنا الحال الى ردّ هجمات خصمٍ كان لا يدع لنا راحةً ليلاً مع نهار ألا وهو عنصر الماء الذي كان يتهدَّد مساعينا بالخراب بلا مَلَل ولا سأم . فلردّ غاراتهِ كنَّا نترصَّد كلَّ حركاتهِ لئلاَّ يفجأنا بمكايدهِ الخفيَّة . ولمَّا كان للنيل قوانين ثابتة في فيضانهِ الذي يتمّ في شهور الصيف كان يجب علينا أن نسرع العمل في مدَّة الشهور التي تتناقص فيها المياه حتى اذا حان وقت الفيضان يقوى قسم البناء المنتهي على صدَمات النهر عند زيادتهِ »

وهاك فصلاً عن طريقة العمل في خزَّان اسيوط . فانهُ عند انتهاء الفيضان في تشرين الاوَّل كان العَمَلة ينقلون الى النهر حيث تحتِّم الشغل اكياساً مملوَّةً من الرمل فيجعلونها كوماً مرصوصةً على شكل مستديرٍ تحاط بها الاخشاب وتُطلى بالطين . ثم تُستخرج المياه الباقية في ضمن الدائرة بطلمبات فتُصبّ خارجاً الى ان تيبس الارض ثم يُحفر الرمل عميقاً وتُغرس فيهِ اجزاز المعدن الضخمة ثم يُبنى السطح بناء متيناً حتى لا يتالفهُ الفيضان في تموز

وكان الشغل يزيد مشقَّةً على قدر اقتراب وقت الفيضان ففي شهري سنة ١٩٠٠ كان المهندسون يراقبون العمل بلا انقطاع وتحت امرهم ١٣٠٠٠ عامل يشتغلون في حرّ يبلغ ٤٠° درجة من المقياس المئويّ الى ٤٥° وكان عدد الطلمبات سبعة عشرة تُنبط كمّيةً من المياه كافية لألفي ألف نفس امَّا أكياس الرمل القائمة في وجه المياه . مُتَّسقةً منظمةً على خمسة صفوف بل عشرة وعشرين صفًّا فبلغ عددها مليوناً ونصف مليون . وكان الرمل في اثناء العمل ينهار ويتساقط وربَّما تداعت بسبب انهيارهِ اقسام البناء المُنجزَة فيحتاج العملة الى فتح آبار يصبُّون فيها كلساً وملاطاً ليقوّوا ما تصدَّع منها . وكان ضغط الماء في محل مسيلهِ ينفذ في اعماق الارض فينفتح لهُ نبوعاً في وسط مساحة الشغل وبلغ عدد هذه النبوع نحو الالف لزمهم سدُّها بسرعةٍ وعلى طرائق مختلفة وبعد النفقات الطائلة

ومع كل هذه المشاكل والعوائق كان الشغل جاريًا مجراهُ بل تمَّ بزمن قريب لم دكن الآمال لتبلغهُ فان الخزَّانين كليهما نجزا قبل الوقت المعهود باكثر من سنةٍ

وخزَّان اسيوط هذه يضمن منذ الآن ريّ زروع مصر الوسطى وبلاد الفيُّوم وبهِ يعلو سطح مياه ترعة الابراهيميَّة ويوفر للزرع ١٢٠٠ كيلو متر مربع

(سدّ اسوان) اماَّ سدّ اسوان الذي جرت حفلة افتتاحهِ في ١٠ من الشهر المنصرم فقد كان الدوك دوكونوت وضع حجره الاول في ١٢ شباط من سنة ١٨٩٩ . وهذا الخزَّان اعظم قدرًا واخطر شأنًا من خزَّان اسيوط فانَّ موقعهُ على مسافة ٩٦٠ كيلو مترًا من القاهرة حيث النيل يجري في شبه حوض طبيعي محصورًا بين ضفتين من حجارة الصوَّان المحبَّب نافذًا بين الجنادل التي منها يتركَّب الشلَّال الاول

وهذه النقطة كانت استلفتت منذ بداءة العمل انظار المهندسين حتى انَّ المسيو ڤيلكوكس كان فكَّر اولًا في ان يبني على الجزائر التي هناك اسدادًا عديدة تجمع الجنادل الى بعضها فتكون قائمة في وجه المياه على شكل مستدير محدَّب . وهو لا يزال يرجح ان هذا العمل كان اثبت وامتن لو فُضِل

وعلى كل فان الخزَّان الحاضر على صورة خطّ مستقيم طولهُ كيلو متران واستقامة خطّهِ هذه ازالت كثيرًا من صعوبات العمل ولعلَّها تضمن لهُ ثباتهُ ايضًا لانَّ البعض يظنُّون انَّ الخطّ المستقيم اصلح من غيره في البلاد الحارَّة حيث الابنية تتمدَّد بقوة الحرارة

واصعب ما قُضي عملهُ على المهندسين في اسوان ان يضعوا اساسًا للبناء ويركّبوا قواعده . لانهُ كان يترتَّب عليهم ان يكسروا سورة المياه ويفتحوا لها مجازًا موقتًا مدَّة ولكن كيف تُضبَط قوَّة هذه المياه في منحدر يبلغ فيه سرعتها الى ٢٤ كيلو مترًا في الساعة ؟ فبعد الروية والفكر لم يجدوا لذلك هذا الشكل الَّا ان يُنحُّوا معظم المياه عن مسيلها ويجعلوا لها تُرَعًا عميقة تجري فيها . فحفروا هذه الترع وحصَّنوها بحجارة ضخمة بلغ ثقلها ٥٠٠٠ كيلو مشدود بعضها بالبعض بقلوس من الفولاذ وزنها خمسون طنًّا . وقد بلغت احدى هذه الترع عشرة امتار عمقًا

فلمَّا خفَّت بذلك سطوة المياه باشروا بالعمل كما فعلوا بسدّ اسيوط اعني انَّهم حلَّقوا حول مكان الشغل اكياسًا من الرمل ثمَّ سحبوا ما بقي في ضمن هذه الحلقة من المياه بالطلمبات فنشَّفوا المكان واخذوا بالحفر

وكان الذين سبروا موقع هذا السدّ بعد الفحص المدقّق اكَّدوا انَّ قاع النيل في هذا المحلّ يتركَّب كلَّهُ من الصوَّان الاصمّ وحجر الديوريت الصلد وعليهِ فيكون اساس الخزَّان غاية في الصلابة لكنَّ هذا القول لم يصحّ من كلّ وجه لانهُ لمَّا كشفوا قاع

النيل وجدوا قسماً منهُ يتركّب من تربة خوّارة من حجر الطلق (mica) الذي لا يصلح لمثل هذا البناء.

فكادت الآمال تحبط بهذا الاكتشاف غير المنتظر لولا انَّ اللورد كرومر نشَّط العزائم وبعث الهمم فحُفرت الأُسس العميقة الى ان وجدوا في قلب الارض الجلاميد الصمَّ. وذلك في بعض الامكنة على عمق ١٣ متراً فبنوا عليها الاساس الذي كان سمكهُ في اسفلهِ ٣٣ متراً. فزادت بذلك النفقات زيادة عظيمة لم تجرِ على بال

على انَّ العمل تمَّ بعد ذلك دون حادثٍ آخر مكدّر الى ان نجز كما هو اليوم. وطول هذا السُّد كيلو متران وهو يتركَّب من حائط ذي منحدرَين وفي اعلاه سطح عرضهُ متران. واعلى نقطةٍ فيهِ اذا حسبتَ الاساس تبلغ ٤٣ متراً و٣٥ س وعلوّ الجدار فوق منافذ المياه ٢٢ متراً. امَّا ثقل البناء فيبلغ مليوناً من الطن

وقد اتَّخذ اصحاب البناء الحجر الصوَّان الذي مقالعهُ في تلك النواحي (راجع المشرق ٥: ١٠٠٠) لاساس هذا الخزَّان وطاوهُ ببلاط بورتلند الصلب. امَّا قلب البناء فحشوٌ بمركَّب متين من الكلس والرمل والحصى جُبلت دقائقها ببعضها فصارت كالحجريَّة. ويتركَّب جانبا الخزَّان من حجارة مكعَّبة ضخمة غير محكمة النحت بخلاف مجاري المياه المفتوحة فيهِ فانَّها مفروشة برخام مصقول

وهذه المجاري او مفاتيح المياه عددها ١٨٠ جُعلت على هندام يروق في العين ١٤٠ منها تبلغ سَعَتُها ٧ امتار و٣٠ س ارتفاعاً في عرض مترين و٢٥ س. وباقيها على نصف هذا الارتفاع. ويجري فتح هذه المجاري بالكهرباء وابوابها على طراز ستوني (Stoney) ذي المعادل واكبرها وزنهُ ١٤ طنًّا يُفتح باليد ولو ضغطتهُ المياه ضغطاً قدرهُ ٤٥٠ طنًّا

وفي غربي الخزَّان على ضفَّتهِ الشماليَّة تُرعة للمراكب لها اربعة حواجز كلّ حاجز عرضهُ عشرة امتار و٧٠ س وعلوّهُ ٢٠ متراً. وهذه الحواجز على شكل خصوصي يدور قسمها الاعلى وتتنحَّى جانباً على متوال بعض الرُّتج. وقد فُضلت هذه الطريقة لانها ضامنة للصلابة فتقوى على حبس الف مليون طنٍ من المياه. وكلّ حاجز من هذه الحواجز كافٍ لهذه المهنة ولو تلفت الحواجز الاخرى الثلاثة. والحقّ يقال انَّ المهندس المسيو ستوكس (W. Stokes) اظهر في هذا العمل براعةً لا نظير لها. وممَّا

لا يسعنا الاضراب عنهُ ما افرغهُ نظّار العمل وعملتهم من النشاط الغريب فانَّ البنَّائين في بعض الأيام اصطنعوا الى ٣٦٠٠ طنّ من البناء. وكان يساعدهم على العمل ثلاث سكك حديديَّة وكان عدد عظيم من الآلات البخاريَّة وغيرها ينقل الموادّ اللازمة للبناء من المقالع الى محلّ الشغل. وقد بلغ في بعض الاحيان عدد العَمَلة في اليوم الواحد ١١٠٠٠ عامل

وفي آخر تشرين الاوَّل بعد الفيضان أُقفلت المفاتيح ونزل مجرى النيل الى ٢٠٠٠ متر مكعَّب في الدقيقة. امَّا الخزَّان فاخذ يمتلي شيئًا فشيئًا. وقد حسب الحُسَّاب انَّ المياه بارتفاعها سوف تتقهقر الى ٣٠ كيلو مترًا منحدرة الى جنوبي اسوان فيكون هذا الحوض خازنًا مئة مليون متر مكعَّب من الماء. ولا بأس اذا غُمرت بعض الاراضي فانَّ النيل سيُخصب بدلًا منها ٢,٤٠٠,٠٠٠ متر مربَّع من المفاوز البائرة ويسقي بلادًا واسعة في شهر أيار وحزيران فضلًا عن كونهِ يسهّل الاسفار للمراكب الصاعدة الى جهات السودان

٥

قد فهمت ممَّا تقدَّم شرحهُ انَّ المنافع التي كان يقصدها المصريُّون بابتناء خزَّاني اسيوط واسوان كادوا ينالوها فيحققوا رأي المسيو پرومت (راجع ص ٨) وآمالهُ. فمذ اليوم صارت مصر واثقة بمستقبل اهلها وحياتهم ولن يعود احدٌ يقرأ على صفحات التاريخ ما دوَّنهُ الفرعون زوسيري احد ملوك السلالة الثالثة على الحجارة انَّ مصر اصابتها المجاعة سبع سنين لنقص مياه النيل (راجع قصَّة يوسف). وكذلك قد افترَّ ثغر الزراعة بهذا العمل فانهُ ليس فقط ستزيد المزارع القديمة خصبًا بل يتسع نطاق الزراعة في صحاري كان سائدًا عليها ملك الرمال. امَّا التجارة فستقوم على ساق لانَّ ضفَّتي النيل من الصعيد الى السودان تصيبان عمَّا قليل حياة جديدة فتُتَمصَّر الامصار وتُبنى القرى والدساكر فتُنقَل حاصلات البلاد الداخليَّة الى البحر المتوسط ومنهُ اليها واردات العالم كلِّهِ وتُصبح السودان لاحقةً بمصر لا يفصل البلدين عدوّ او خارجيّ

ولمَّا كان اتّصال السودان بمصر لا ينجز تمامًا الَّا باتّخاذ أَسداد أُخرى للنيل لا يمكننا ان نختم هذه المقالة دون ان نذكر شيئًا ممَّا يقصدهُ ارباب الامر من هذا القبيل قلنا انَّ خزَّاني اسيوط واسوان ليسا الَّا مقدّمةً لمشروع آخر اعظم شأنًا واوسع

نفعاً . فانَّ المتولين على مصر يؤمّلون قريباً ابتناء خزانين آخرين احدهما في وادي حلفا في حدود مصر والسودان لريّ بلاد النوبة والاخر في خرطوم عند الشلال السادس لسقي السودان وبهما يصبح كلا البلدين في مأمن من القحط والمجاعة ابد الدهر . ولا يبعد انَّ مهندسي الانكليز يباشرون بهما بعد زمن قليل

غير ان المسيو ولكوكس لا يكتفي بان يخصب مصر والسودان فانهُ يريد ان يجعل النيل الاعلى في قبضة المصريين كما يملك صاحب الملك رأس العين ليتصرَّف بمياهها كيف شاء . ولمَّا كان النيل يخرج من ثلاثة مصادر عظيمة اعني بحيرة تسانا في بلاد الحبش ومنها النيل الازرق ثم بحيرتي فيكتوريا نيانزا والبرت وراء خطّ الاستواء ومنهما النيل الابيض عرض المسيو ولكوكس على ارباب الامر اصطناع احواض أُخرى في مجاري النيل الثلاثة بحيث تُخزَن كل مياهه في مصادره المختلفة فلا يبقى خوف البتَّة على مستقبل مصر والسودان وعلى هذا النمط تُصبح المستعمرات الانكليزيَّة في اواسط افريقية كبحر الغزال والاوغندة امصاراً غنيَّة يخيّم فوقها التمدُّن

هذه نيَّات المسيو ولكوكس يصرّح بها الآن ويكتب للمدافعة عنها المقالات الطوال . الّا انَّ هذا الكاتب يغويهِ التعصُّب لوطنهِ وهو لا يرى ما وراء تحقيق هذه النيَّات من العقبات . فنشدتك الله ايرضى ملك الحبش بان يُقام في بلاده خزّان يتولّى ادارتهُ الغرباء . امَّا بحيرة فيكتوريا فاذا أُقيم لها سُدّ سترتفع المياه وتغمر المستعمرات الالمانيَّة التي بقربها والمانية لا ترضى بذلك مطلقاً . فلا يبقى الّا البحيرة البرت يمكن ابتناء حوض عندها . فهل يا ترى يخرج المشروع يوماً الى حيّز الوجود فالامر تحت ريبٍ لاسيَّما انَّ المنافع التي تنتج عن هذا الاسداد ليست كلُّها خالصةَ الفائدة فاذا نفعت بلداً رُبما اضرَّت غيرهُ

وما انَّ سُدَّ اسوان نفسهُ يرى فيهِ ذوو النظر شوائب تُنقص من قدره . منها ما قلنا عن آثار جزيرة فيلة التي تغطيها المياه مدَّة من السنة ولعلَّها تتلفها مع الزمان رغماً عمَّا أُتخذ لصيانتها من الاحتياطات . ومنها انَّ المياه المرصودة وراء الخزّان تبقى اشهراً طويلاً راكدةً على شبه المستنقعات أفلا تفسد هذه المياه ويحصل عنها حمّيات تجعل الجهات المجاورة لها غير مسكونة . ومنها ايضاً انَّ اهل النوبة الذين لاجل فقرهم لم يدفعوا حتى الآن الّا خراجاً خفيفاً لا يلبثون عمَّا قليل ان يصبحوا

عرضةً لمطامع المكاسين والجباة فتزداد فرائضهم ويستولي على املاكهم اهل الثروة

هذه بعض ملاحظات جاهر بها اهل الاعتبار رويناها كما عرضوها . ونحن نشكر لكل من وقفوا حياتهم واتعابهم في سبيل نجاح مصر سواء كانوا من اهلها الوطنيين او من الاجانب لاسيَّما ارباب الهندسة الفرنسويين والانكليز الذين اروناعيانًا ما لم نكن نرجو بروزهُ الى عالم الكون والله الموفق للصواب

يمين العليّ

رواية تاريخية للاب س. ت البسوعي (تابع)

الفصل الثاني

الضابط راسيوس روفوس (١

مرَّ الضابط الروماني بقرب محلَّة يهوديت فما توارت عن عيانهِ حتى ركض فرسهُ الى جهة بيروت فاجتازها على جوادهِ مسرعًا وهو ينحي بقضيبهِ كلَّ من يثبطهُ في سيرهِ

وكان الناس يتأهبون لزينة الليل فيعلّقون القناديل ويضفرون اكاليل الغار ويعدّون المشاعل ليشاطروا العالم الروماني بافراحهِ . وكان لاهل بيروت سبب خصوصيّ يدعوهم الى اقامة هذه الحفلة البهجة لانهم كانوا عرفوا القيصر الجديد فسبيانوس ورأوهُ في مدينتهم حيث اتاهُ الوفود ليبايعوهُ بتلك رومية (٢

لكنَّ الضابط لم يُعِر بالهُ لهذه التأهبات وعجَّل سائرًا الى الباب الشرقيّ ومنهُ صعد الى ربوة مشرفة على البلدة وعلى نهر ماغوراس (نهر بيروت) معًا وكانت هذه الاكمة مزدانة بالدور الجميلة والمنازل الفخيمة يسكنها اهل اعيان البلد وضبَّاط الجند. وكان في طريقهِ يرى اهل المزارع لابسين ثياب العيد ومسرعين الى المدينة ليشاهدوا الزينة فاذا واجهوهُ خفضوا اصواتهم وناجى بعضهم بعضًا مومئين اليهِ

١) وباللاتينية Ræcius Rufus وهو اسمٌ تاريخيّ وكذلك اكثر الاسماء التي نبني عليها روايتنا فانَّها تاريخيَّة

٢) رجع تاريخ يوسيفوس (الحرب اليهوديَّة ك ٤ ف ١٠ ع ٦) وتاريخ تقيتوس (٢ : ٨٠)

ثم وصل الفارس الى بيتٍ وسط فترل عند بابه وسلّم لجام الفرس الى عبد اسرع الى استقباله. ثم دخل الدار وهو يردّد نغمةً من نغمات النوبة العسكريّة. واذا برجل من الداخل يدعى لوسيليوس صرخ اليه بصوت جهوري أأنت هو يا راسيوس روفوس؟

— انا بنفسي

(لوسيليوس) وما قولك بالزينة التي يُعدّها اهل المدينة؟

(روفوس) هذه حفلات رسميّة... ولا اراها تتجاوز الحدود المألوفة

(ل) ساء قولك هذا. استقلّ هذه الزينة وهي قد افرغت صندوق ماليّتنا

(ر) لا بأس فان مدينتكم غنيّة وكفى شاهدًا على ذلك ما فيها من الابنية الفخيمة كالحمّامات والملاعب العموميّة وما يزينها من دُمى الآلهة وتماثيل الرجال العظام حتى العُمّال الصغار

(ل) نعم ان بيروت واسعة التجارة غنيّة السكّان ولكن كيف تجهل مع أنك ضابط الجند الرومانيين فيها منذ ثلاث سنوات ان هذه الابنية ليست على نفقة البلديّة وانّما هي هدايا ملوك عظام لمدينتنا. فانّ هيرودس الكبير قد ابتنى بماله الخاص اروقتنا ومجلسنا العموميّ وبعض هياكل آلهتنا (١. وشيّد الملك اغريبا المرسح العظيم للالعاب العموميّة والحمّامات (٢. واما القائد الروماني اغريبا صهر اغوسطس فهو الذي يُبهج الجمهور في كلّ سنة بما يصرفهُ من المال الجسيم المشاهد والالعاب (٣. فلا يبقى الّا التماثيل التي ينصبها الاهلون تقرّبًا من اصحاب الامر ليزلّفوا قلوبهم

(ر) وهل عندك شيء من الاخبار؟

(ل) ليس من خبر جديد وحتى الآن لم يَدْعُك احد من رؤسائك الى المعسكر لمواصلة الخدمة فانّهم لا يظنّون انك برئتَ تامًا من جرحك

(ر) نعم كدتُ انسى السهم الذي رشقني به البرثيّون في حربنا الاخيرة ولولاهُ لما كنتُ الآن في هذه الدار متنعمًا برغد العيش ريثما اشفى منهُ الشفاء التامّ. وازيدك علمًا اني لا ارغب الرجوع الى فرقتي قريبًا

١) راجع تاريخ الحرب اليهوديّة ليوسيفوس (ك ١ ف ٢١ ع ١١)
٢) راجع كتاب الآثار اليهوديّة لهُ (ك ١٩ ف ٧ ع ٥)
٣) راجعهُ ايضًا (ك ٢٠ ف ٩ ع ٤)

(ل) ما هذا القول. كنتُ اسمعك قبل اسبوع تتلهّف الى الحرب لتدافع عن المملكة واليوم اراك تنسى الجنديّة وتريد الراحة ؟ ماذا عرض لك ؟

(ر) عرض لي انني رأيتها . . . ورأتني

(ل) ومن هي ؟

(ر) هي . . . هي . . . ولكن كيف أُعلمك باسمها وانا لا اعرفهُ . وانّما اعرف انّها فتاةٌ جميلة وانَّ حبها لاط بقلبي منذ نظرتُ اليها ونظرتْ اليَّ

(ل) واعجباهُ . أجنديّ مثلك تصطادهُ الاوانس ويدع قلبهُ تستفزّ بهِ الاهواء. لنظر بسيط رشقتهُ بهِ فتاةٌ مجهولة ... ولا احسبها الّا ابنةً يهوديّة . . . ولا أرى غيرهنَّ يفعلنَ ما فعلتَ اذ ابتدرت بفتحة ورمتك بسهامها

(ر) يهوديّة . . . اخالك مازحاً . . . ليست الفتاة الّا ابنة احد الفرسان او البطارقة او الامراء . . . .

(ل) خدعك يا صاح قلبُك . ولكن أخبرني بامرك معها وكيف اوقعتك هذه الإلاهة في حبائلها

(ر) لمّا ابللتُ من مرضي واندمل جرحي ركبتُ في اوّل اسبوع من دسمبر فرسي واخذت اركضهُ على شاطئ نهر ماغوراس وكان الجواد لمّا احسَّ بفارسهِ عاد اليهِ نشاطهُ واخذ يمرح في المروج المجاورة يتقدّمهُ كلبي الامين السلوقيّ وهو يفرح لفرحي كأنّهُ يهنّئني بالسلامة والصحة . وانا في سيري اذ عرضت لنا غيضةٌ في عطفة من الطريق لم يسبق اليها نظري فما بلغها الجواد حتى عثر بشجرها فكبا وكدتُ انا اسقط لانَّ ضعفي لم يسمح لي بضبط عنان الجواد على ما كنت اروم من السرعة

وفي الوقت ذاته سمعتُ صوتاً صائتاً يخرق الجوّ دلالةً على الهلع والخوف . فنظرتُ واذا بفئة من فتيات المدينة كنَّ اجتمعنَ في تلك الغيضة ليتجاذبنَ اطراف الحديث وكان نظري اطار قلبهنَّ شعاعاً . فاردتُ ان استميح منهنَّ عذراً فتلجلج لساني واذا بواحدة منهنَّ اجابتني برقّة : « لا بأس سيدي وكفانا أنّا رأيناك سالماً . وحقّ راس الملك انك لفارسٌ تحسن ركوب الخيل المطهّمة ولو كان بيدي اكليل من الغار لوهبتهُ لك ودونك هذا الغصن الاملود من اغصان الزيتون بدلًا منهُ » . فاخذتُ الغصن من يدها

شاكرًا وثنيت عنان الجواد وقلبي يخفق لرقة كلامها ولم ابتعد عنهنَّ الّا بعد ان جريت امامهنَّ شوطين فصفّقنَ لي بالايدي مستحسنات لرشاقة حركاتي

(ل) قد فهمتُ الآن معنى هذا غصن الزيتون الذي جعلتهُ فوق فراشك وضممتهُ الى شارة الفخر التي اولاكها كربولون في حرب البرتيين. ولعلَّ هذا هو الداعي لبسطك وانشراحك منذ ثلاثة اسابيع. وهل رايتَ معبودتك بعد ذلك ؟

(ر) رأيتها قبل ثمانية ايام. وفي هذا المساء ايضًا صادفتها وهي محمولة على محفَّة فوق اكتاف عشرين زنجيًا وكانت متَّجهة الى غار الحمام

فلمَّا سمع لوسيليوس هذا الكلام اخذ يقهقه ثم قال: ولا تعرف اسمها ؟

(ر) كنتُ اودُّ لو اقف عليهِ

(ل) انا اعلمك بهِ. وقد عرفتها من وصفك لها . . . هذه ابنة اغنى يهود بيروت يدعى ابوها صمويل واسمها يهوديت

(ر) وهَبْ انَّها هي ثم ماذا ؟

(ل) ماذا ؟ ايستطيع ضابط مثلك قليل المال متوسّط الحال ان يخطب وحيدة رجل اغنى من الملك كريزوس. ولكن افترض ان اباها يرضى باقترانكما. ايسوغ لرجل روماني ان يلقي بمقاليد امره الى امرأة اجنبيَّة ليست من جنسهِ . . . ولعلَّك غدًا تمشي الى حرب قومها في اورشليم. أنسيت حالة هذا الشعب مع الدولة الرومانيَّة وعصيانهُ على جنودنا المظفَّرة. وهاك اليوم ڤسپسيان الملك لا تستقرُّ قدمهُ في رومية حتى يسعر هذه الحرب العوان ويُرسل ابنهُ طيطس الى فتح المدينة العاصية أفاتك انَّ القوَّاد في اجتماعهم الاخير في الصيف أتّفقوا على خراب اورشليم واستعباد شعبها . . . فكيف ترضى لك بقرينة من القوم العبيد . . . لا لا يا روفوس هذا لا يليق بشرف الرومان. فضلًا عن انَّ اليهود في كتبهم المنزلة لا يُسمح لهم بان يقترنوا بعبدة الالهة مثلنا فانَّنا لديهم كقوم ارجاس لا يمكنهم ان يعيشوا في صحبتنا البتَّة فدَعْ اذن عنك هذه الافكار . . . وهلمَّ بنا الى لوقينيوس فرونطو فانهُ هذا المساء اعدَّ لبعض الاصحاب مأدبةً فهلمَّ قاسمنا الافراح بحضورك وغرّق همومك بكؤوس الخمرة القبرسيَّة

(ر) قد جرحتَ قلبي يا لوسيليوس فلم يَعُد لي شهوة الطعام

(ل) اني جرحتهُ كما يجرح الناصح بنصيحته والصديق بمشورته . فان آثرت نصحي لا بدَّ يوماً تحمد مغبّتهُ . فهلمَّ معي فانَّ المدعوين الى الوليمــة عند لوقينيوس فرونطو ينشمون عن قلبك هذه الهموم . فهيًا بنا

(ر) لا اريد ان يراني القوم وعلى وجهي آثار الغمّ فاني ابقى هنا واستودعك الآلهة الى غدٍ

(ل) نعم الى غدٍ فنم نوماً هنيئاً . امَّا انا فاني ساقضي ليلي في المسرَّات مقــدّماً تحياتي لباخوس إله الخمر فانهُ نِعم الاله يفرّج عن الاكدار وينفي عن القلب غمــام الاحزان

(ر) اذهب مسرعاً لانك ان تأخَّرت نُظمت في عداد الطفيليــين فلا تذوق شيئاً من المآكل الطيّبة والمشارب اللذيذة المعدَّة لاعيان المدعوّين

*

— هاءنذا وحدي . . . لقد اظلمت الدنيا في عيني لما كشفهُ لي هذا الصديق . . . انهُ اصاب حبَّة قلبي وبدَّل افراحي بالاتراح واهبطني من اوج الرجاء الى قعر اليأس . . ومع ذلك لا اراهُ الّا صادقاً يريد خيري ويطلب راحة قلبي

وبينما كان روفوس يردّد هذه الافكار في راسهِ اذ دخل عبد واعلم الضابط بان عشاءهُ حاضر . فصرفهُ روفوس باشارة وخرج ليستنشق الهواء على سطح البيت علَّهُ يُسرّي عن قلبه مضضهُ واوجاعهُ ويعيد اليه سكونهُ

فجلس على دكَّة واسنــد رأسهُ الى شرفة من شرف الدار . وكانت السماء في تلك الليلة مزدانة بنجوم لامعة تتلألأ بكواكب ساطعة لا يحجبها غمام امَّا الارض فكانت تجاري السماء بهائها فانَّ لبنان كان يشعُّ بالانوار والمدينة كانت تُرى كانها شعلة نار تتصاعد منها اصوات الافراح وترتفع من انحائها الاسهم النارية خارقةً كبد الزرقاء . . فبقي روفوس مدَّة لاهياً عن هذه المشاهد البهيَّة تتجاذب قلبــهُ الهواجس وتتراكم على نفسهِ الحنادس

وكانت دار لوقينيوس فرونطو تبعــد عن دار الضابط نحو مئتي قدم تُرى الانوار من نوافذها . فلمَّا اجتمع القوم اخذت ضجَّــة الافراح تزداد واصوات المغنّين والقيون مع نغمات الاوتار تصدح في الفلا حتى بلغت آذان روفوس الكاسف البــال فكان

ذلك ضغثًا على أبالة وتفاقمَ حزنهُ لمَّا قابل حالهُ بمسرَّات اصحابهِ وقاس كربَهُ بالبهجة السائدة على البلد باجمعهِ. فاحسَّ بجُثام ضغط على قلبهِ وتخدَّرت اعضاؤهُ وتولى عليهِ سُبات عميق كان يُسمَع لهُ في اثنائهِ زفرات وانين

وفي تلك الاثناء كانت الاحلام الذهبيَّة ترفرف حول راس يهوديت في غرفة «دار الورود» (البقيَّة للآتي)

نظر في اهمّ حوادث السنة المنصرمة

للاب لويس شيخو اليسوعي

ليس من شأن مجلَّتنا المشرق ان تخوض في الامور السياسيَّة وتسطّر المجرَيات اليوميَّة والاخبار المستحدثة فانَّها تدع ذلك لقرينتها البشير. الَّا انَّنا رأينا ان نخصّص في آخر السنة المنصرمة ومفتتح السنة الجديدة فصلًا اجماليًّا يتضمَّن اهمّ الحوادث التي جرت في غُبرة العام الماضي. ففي هذا النظر العمومي نجد فائدتين: الاولى انهُ تاريخ ملخَّص لهذه السنة والثانية انَّ الحوادث اذا ضُمَّت الى بعضها تُرَى بسهولةٍ علائقها وتظهر اسبابها وغاياتها وعلى ذلك تتوقف فلسفة التاريخ

١ اوربَّة

﴿ الدولة العليَّة ﴾ يسرُّنا ان نفتتح كلامنا بذكر دولتنا العليَّة فانَّ الذات الشاهانيَّة صانها الله من كل الآفات وايَّد شوكتها دخلت في العام الماضي في السنة السابعة والعشرين من جلوسها المأنوس على تخت السلطنة. ومن مآثرها ايَّدها الله في هذه السنة الاخيرة اهتمامها بالاسطول العثماني وانشاء سُفن جديدة. ومنها اصلاح السجون بعد عود لجنةٍ كُلِّفت في فحصها في كل ولايات الدولة. ومنها ايضًا تقرير الحضرة الشاهانية بانشاء مكتب لتدريس فنّ المعادن مع ما يحتاج ذلك من العلوم كتحريك الاثقال والطبيعيات ودرس طبقات الارض والنبات. ومنها ايضًا القرارات النهائيَّة في انشاء سكَّة بغداد التي يؤمل افتتاح اشغالها في هذه السنة. وقد ابدت الحضرة السلطانيَّة في

غضون العام الماضي من الألطاف والمجاملة للكنيسة الكاثوليكيّة ما زاد على فضلها السابق كالرقيم السلطاني الموجَّه لقداسة الحبر الاعظم مع وَفْد خصوصي أُرسل الى رومية في فرصة اليوبيل البابوي . وكالبراءة الممنوحة لغبطة البطريرك الجديد على طائفة الروم الكاثوليك وكالاوسمة العثمانية المرصعة او المجيديّة الاولى الممنوحة لثلاثة بطاركة من الكاثوليك .

﴿ رومية ﴾ قد عزّى الله قلب ابي المؤمنين بما نال في العام المنصرم من التعازي في وسط بلاياه . فانّ دخوله في يوبيله الحبري اتى كبرهان جديد على العناية الصمدانيّة بالكنيسة ورأسها المنظور . وقد كانت الاعياد المقامة في هذه النسبة كانتصار باهر للكاثلكة في كل انحاء المعمور فانّ الدُوَل كلّها قد ارسلت معتمديها مع الهدايا الفاخرة لامام الاحبار . ومذ ذاك الحين اخذ الزوّار يتوافدون الى امّ المدن للتبرّك بمواجهة شيخ الفاتيكان وتقبيل اقدامه . فاصبحت رومية في كل هذه السنة كَزار مقدَّس يحجّ اليه العالم الكاثوليكي . ولم يتأخر شرقنا العزيز في مقاسمة هذه الافراح باقامة الحفلات البهجة وارسال الهدايا السنيّة ورحلة الاحبار الاجلاء من كل الطوائف في مقدّمتهم بطريركا السريان والكلدان الكاثوليك الى زيارة الاعتاب الرسوليّة . امّا قداسة راعي الرعاة فانهُ رغماً عن عبء السنين لا يزال يمسك بيدٍ قويّة سكّان السفينة البطرسيّة وحسبك ما نشرهُ في هذا العام من الرسائل البليغة المملوّة حكمةً ودراية في الدروس الكتابيّة وتهذيب الاكليروس . وما انهاه من المشاكل مع عدّة دولٍ بابرام المعاهدات وعقد المخابرات لاسيما مع الولايات المتّحدة في شأن الفيليبين

﴿ فرنسة ﴾ كانت في العام المنتهي امورها الداخليّة مضطربةً لما سُنَّ فيها من الشرائع المجحفة بحقوق الرهبانيات وقد قدّم جمهور الاساقفة لمجلس الأمّة رسالة عموميّة يستلفتون انظاره الى ما تُحدث هذه المعاملات من شتات الامر وتفرّق الكلمة . وكذلك اضطربت الاحوال باضراب العَمَلة عن الشغل في امكنة عديدة فتوقّف دولاب التجارة مدّةً حتى انتهت هذه الازمة بحمده تعالى . ومن الامور التي كثر فيها القال والقيل مسئلة عائلة همبر التي فرّت هاربةً بعد اكتشاف خديعتها لكنّ الشرط الأسبانيين تمكّنوا اخيرًا من القاء القبض عليها وسلّموها للدولة الفرنسويّة لتجري عليها المحاكمة . ومن الامور السارّة انّ الجمعيّات الكاثوليكيّة وخصوصاً جمعيّات الشبّان زادت في

السنة ١٩٠٢ الفةً وارتباطاً للمدافعة عن الكنيسة وحقوق الدين. امَّا الخارج فانَّ احوال فرنسة فيه على غاية الترقي فانَّ مستعمراتها زاهرة ونفوذها متّسع. من ذلك انها ازالت ما كان بينها وبين سيام من الاستياء. والشُّخط بماهدة أُبرمت بين الدولتين في ٦ تشرين الاوَّل نالت فرنسة بموجبها مقاطعات مالوبري وباساك وهي عبارة عن ٢٧٠٠٠ كيلومتر تُضمّ الى مستعمراتها في كامبوج ويشترط عليها ان تردّ لسيام مرفأ شنتابون الذي كان في يدها منذ ١٨٩٣. وكذلك بقيَّة المستعمرات الاسيويَّة الفرنسويَّة فانَّها في احسن حال يبلغ سكانها ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وتجارتها ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك امَّا مستعمراتها الافريقيَّة في سينيغال وغيناي وساحل العاج وداهوماي والكونغو ومداغسكار فضلًا عن بلادها في شمالي افريقية كلّها في نجاح أتمّ قد حدث في تنظيمها بعض التغيير تسهيلًا لادارتها وتحسينًا لامورها. على انَّ الله قد امتحن مستعمراتها الاميركيَّة بما دهم جزيرة مرتينيك من المصاب الذي لا تزال آذاننا تطنّ لاهوالهِ. وقد امتاز في مساعدة المنكوبين مرسلو جمعيَّة آبا الروح القدس فاستحقوا ثناء الحكومة الفرنسويَّة كما اثنت على كثيرين من مرسليها في مستعمراتها واثابتهم بانواط وامتيازات شرفيَّة

﴿ ايطالية ﴾ تجوَّل ملكها فيكتور عمنويل الثالث في انحاء اوربَّة وزار الامبراطورين الثلاثة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف ونيقولا الثاني في عواصم ملكهم فتأوَّل الصُّحُفيُّون لهذه الزيارات التأويلات السياسيَّة فيعلمنا المستقبل بخطإها او صوابها. وفي هذه السنة مات الوزير السابق كرسبي المشهور بعداوته للدين وكان في آخر حياته يعيش منسيًّا. ومن اعمال الكاثوليك الايطاليين المشكورة سعيهم في ابطال البراز وسنّ شريعة ضد المتبارزين. ومناقضتهم لسُنَّة الطلاق التي يرغبها الاباحيُّون

﴿ اسبانية ﴾ قد احتفل الاسبانيُّون الحفلات الفخيمة المماوة تحشُّماً في أيَّار بنسبة تتويج ملكهم الفونس الثالث عشر. ومع كونه الآن صار مستقلاً في الاعمال لم يرضَ بان تنفصل عنهُ أمّهُ ماري كريستين التي ادارت المملكة نيابةً عنهُ مدَّة ١٦ سنة بكل فطنة وحكمة واحسنت تربيتهُ حتى كانت لهُ بمثابة بلانش دي كاستيل للملك القديس لويس التاسع. وإثر هذه الاعياد الشائقة تجوَّل الملك في اطراف دولته فكان طوافهُ باعثاً لعواطف الحبّ وشواعر الانتباه لشخصهِ الكريم امَّا الملك الجديد فانهُ مستعدّ لتضحية حياتهِ لخير رعاياهُ وهو الآن يصرف عنايتهُ في توسيع نطاق التجارة

والصنائع. وقد انتهت السنة بأزمة الوزارة وسقوط ساغستا وتشكُّل وزارة أخرى محافظة يترأسها المسيو سيلڤيلا

﴿ البورتغال ﴾ لا يزال النفوذ الانكليزي سائدا على هذا البلد فان الانكليز يضبطون اكثر املاكه وكرومه ومعامله. والظاهر اليوم ان انكلترة نالت من البورتغال مستعمرتها دي لاغوا في شرقي افريقية بينما تملك المانيا على البلاد الواقعة في شماليها

﴿ المانية ﴾ ترى الامبراطور غليوم في حركة دائمة لترقية دولته وتوثيق العلائق الحبيَّة مع الدول الاوربية ولذلك زار في العام المنصرم الملك ادورد والامبراطورين فرنسوا جوزف والقيصر نيقولا. وقد جدَّد المعاهدة الدفاعيَّة المثلَّثة مع النمسة وايطالية. وممَّا يشهد على ترقّي المانية نموّ سكّانها العجيب فان الكاثوليك وحدهم قد بلغوا في هذه الدولة نحو ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ — نالت ايضًا المانية من تعطفات الذات الشاهانيَّة ان تستولي في بحر الاحمر على جزيرة فرسان لتجعلها مرفأ لاساطيلها في ممرّها الى الشرق الاقصى — وقد منح الحبر الاعظم للامبراطور ان ينشئ كليَّة كاثوليكيَّة في ستراسبرغ ومن آثار المانية في السنة ١٩٠٢ مؤتمراتها المتعددة منها مؤتمر التدرُّن في برلين ومؤتمر الكاثوليك في مانهيم ومؤتمر المستشرقين في هامبورغ وكلّ ذلك دليل على ما للالمان من النشاط في كل الاعمال المطلبة الآيلة الى خير الوطن دينًا ومدنيًّا

﴿ انكلترة ﴾ قد خلا الجوّ لانكلترة في العام المنقضي فانها نشرت علَمها فوق الترنسفال بعد ثلاث سنوات ذاقت جنودها في غضونها الامرَّين بازاء امَّة صغيرة استقتلت في سبيل حريتها. وكان الصلح في ٢ حزيران مقدّمة لافراح لم يُعهَد لها مثيل اقامها الانكليز لتتويج ملكهم ادورد السابع فدقّت البشائر ونهض العالم البريطاني كرجل واحد لابداء ما تكنُّهُ الصدور من الاعتصام بحبل الملكيَّة الوطنيَّة على ان هذه الحفلات تأخرت مدَّةً ريثما يبلُّ الملك من علَّة فاجأته فكادت تذهب بحياته بيد أنها كانت داعيًا جديدًا لمظاهر الحبّ والولاء من قبل رعاياه. امَّا احوال بريطانية العظمى في الخارج فسائرة على قدم النجاح لاسيَّما في اليابان حيث عُقدت محالفة بين الدولتين. وغاية همَّة الدولة الانكليزيَّة في الحاضر ان تمدَّ في افريقية سكَّة حديديَّة من شمالها الى جنوبها مارَّةً في املاكها ما امكن وهذه اوَّل ثمرة تنوي اجتناءها من حربها الافريقيَّة واستثمارًا للمناجم الغنيَّة من الذهب والماس التي تجدها في تلك البلاد. هذا وقد لاقت

انكلترة في جهات الصومال من المقاومة لجيوشها ما لم يَدُرْ على خلدها وهي حتى الآن تناجزهم القتال ولم تظفر بهم تامًّا

﴿ روسيَّة ﴾ لا تزال الدولة الروسيَّة تخطو كل سنة خطوة واسعة حتى بلغت مساحة املاكها ثلاثة اضعاف مساحة اوربة يُعَدُّ سكَّانها ١٣٥ مليونًا من البشر منهم في آسية ٢٥ مليونًا يسكنون في بلاد واسعة لا تقل مساحتها عن ١٧ مليون كيلومتر مكعَّب. هذا اذا لم يحسب منشوريَة في املاكها والأولى ان تعدَّها من روسيَّة لأنَّ هذه الدولة اخذت تتصرَّف بها تصرُّف السيّد بملكهِ. وممَّا يزيد روسيَّة نفوذًا في الشرق الاقصى سكَّتها الحديديَّة الواصلة بين عاصمتها وفلاديفوستوك مارَّةً في سيبيرية وبحيرة بيكال ومنشورية. وهذه الطريق عبارة عن ثُلث دورة الارض ستفتح لروسيَّة كنوز تلك البلاد النازحة وتجعل تجارتها في مقدمة التجارة الاوربيَّة. وممَّا تستعدّ لهُ اليوم الدولة المسكوبيَّة عيد المئة الثانية لتأسيس حاضرتها بطرسبورج وذلك في اوائل أيَّار القادم. ومن الاخبار السارَّة المنبئة بتحسُّن العلاقات بين روسيَّة والكرسي الرسولي الزيارة التي نوى القيصر بصنعها قريبًا لنائب المسيح على الارض

﴿ النمسة ﴾ ممَّا تابهج بهِ كل الجرائد الفوز العظيم الذي فاز بهِ في انتخابات مجلس النوَّاب الحزب الكاثوليكي الذي يتولَّى شؤونهُ الدكتور الهمام والبطل الضرغام لويغر الصادق الانتماء الى عرش الامبراطور فرنسوا جوزف يساعدهُ في رئاسته البرنس لويس لختنشتين. والامل وطيد بان يعود قريبًا بهمَّة هذين الزعيمين الهدوء والسلام لتلك البلاد التي تتعاورها سهام المشغّبين كالاشتراكيين والفرامسون

﴿ بلجكة ﴾ رأت بلجكة في السنة المنصرمة من تقدُّم تجارتها البرّيَّة والبحريَّة ونموّ صنائعها وتحسُّن ماليَّتها ما يضمن لسيطرة الحزب الكاثوليكي فيها الثبات لسنين طويلة. امَّا ملكها فمعدود بين اعظم الملوك الذين تربعوا في اوربَّة على تخت السلطنة يحبُّ رعيَّتهُ حبَّ الاب الشفوق لحشاشة قلبه كما تخلص لهُ الرعيَّة حبَّها البنوي ولمَّا اراد بعض الاشقياء ان يعكّروا صفاء الجوّ ونصبوا المكايد للملك استاء الشعب كلهُ. ايَّ استياء. وودَّوا لو فدوهُ بالنفس والنفيس. وكذلك شاطروه في حزنهِ لفقد قرينته الصالحة ماري هنريات النمسويَّة التي ماتت ميتة الابرار في سبا في ١٩ ايلول بعد ان عطَّرت بفضائلها السامية كل انحاء الدولة. ومن مآثر الحكومة البلجكيَّة أنها ردعت

اصحاب الشغب وردت كيد زعمائهم في نحورهم وكذلك سنّت قانوناً لمنع القمار. وأحسنت ادارة مستعمرتها في الكونغو بحيث اضحت تلك البلاد كمثال المستعمرات بحسن تدبيرها وجودة احوالها ادبياً ومادياً. وفي ايلول التأم الجمع القرباني في نامور حضرهُ ٣٠٠٠٠ رجل من نخبة الكاثوليك الاوربيين وقد ترأس هذا الجمع نيابة الكردينال غوسنس باسم الحبر الاعظم مع ٢٥ اسقفاً وانتهى بطواف مهيب حُمل فيه القربان الاقدس في شوارع المدينة يتقدمهُ المؤمنون بعدد نيّف ومئة الف نسمة

﴿ هولندة ﴾ الوزارة التي ضبطت في سنة ١٩٠١ عنان التدبير ساست في العام الماضي البلد سياسةً مملوءة حكمةً كيف لا وبين هؤلاء الوزراء ثلاثة كاثوليكيين من ذوي الخبرة والذكاء اختارهم الدكتور كويبر البروتستاني لسمو مداركهم. ومما جمل هولندة مقاماً رفيعاً بين الدول مجلس التحكيم المنشأ في لاهاي لفض المشاكل الدولية. وقد رضيت دول عديدة بحكم هذا المجلس في دعاوي مختلفة منها الخلاف الواقع بين فرنسة وانكلترة بشأن شط الذهب والخلاف بين فرنسة والشيلي وبين الولايات المتحدة وجمهورية سلفادور ومما حكم فيه هذا المجلس مؤخراً الخلاف بين المكسيك وكاليفورنية فقضى على المكسيك تعويضاً عن اموال اليسوعيين المحجورة وقت النفاء رهبانيتهم ١,٤٢٠,٦٨٣ دولار لكنائس كاليفورنية وفي كل سنة منذ الآن ٤٣,٠٥٠ دولاراً

﴿ سويسرة ﴾ باعت في السنة ١٩٠٢ اكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ ساعة بنحو مئة مليون فرنك ولا يجاريها في هذه التجارة دولة أخرى — ومن اعمالها الشهيرة سرب سنبلون الذي فُتح في جبالها على علو ٧٥٠ متراً وطولهُ عشرون كيلومتراً فيكون اطول كل الاسراب وهو يقصّر المسافة بين كالاي وميلان بنحو ١٠٠ كيلومتر. وهذا السرب مضاعف قسم منهُ للذهاب وقسم للاياب بينهما ١٧ متراً من الصخور الصمّاء فلا خطر للاصطدام — وقد تعددت ايضاً في جبال سويسرة السكك الحديدية المسننة حتى اصبح اليوم عددها عشرين سكة - في ١١ من الشهر الجاري صار رئيساً لايالاتها المتحدة المسيو دوشر (M. Deucher)

﴿ اسوج ونروج ﴾ قد دُشنت في تروندهيم من اعمال نروج كنيسة كاثوليكية كبرى وحضرت الحكومة البروتستانية رسمياً هذا الاحتفال. وهو اول مرة حدث

ذلك منذ الاصلاح البروتستاني . وكذلك بلاد اسوج قد اطلقت الحرّية لكل من يريد ان يدين بالدين الكاثوليكي

❁ البلقان ❁ هناك عدّة امم صغرى لا تزال في حركة متداومة اعاد الله اليها السلام والأمن

❁ اليونان ❁ انتهت ازمتها الوزارية وصارت رئاسة الوزراء الى المسيو دلليانيس

(البقيّة للآتي)

الآثار الشرقية في مكاتب باريس

للاب انطون رباط اليسوعي

ليست غايتنا في هذه المقالة ان نصف لقرّائنا ما تحتويه خزائن باريس من المخطوطات الشرقيّة القديمة كالتآليف الكبيرة والآثار الادبيّة فانّ غيرنا من افاضل المستشرقين قد سبقونا الى ذلك نخصّ منهم بالذكر دي ساسي ودي سلان وزوتنبرغ ومصنفات هؤلاء العلماء معروفة وموجودة فلا يصعب الاطلاع عليها

على ان في باريس كنوزًا أُخرى مطمورة لم يتصدَّ حتى الآن لوصفها احد من الأدباء ومرادنا بها الرسائل والمذكّرات التي كتبها الشرقيّون فارسلوها الى الدولة الفرنسويّة منذ نيّف وثلاثمائة سنة فصينت في عاصمة فرنسة في مكاتب الوزارات منها مكتبة وزارة الخارجيّة ومكتبة الوزارة البحريّة ومكتبة وزارة المستعمرات وغير ذلك من المكاتب التي اسعدنا الحظّ بمطالعتها واستنساخ قسم صالح منها يفيد تاريخ بلادنا افادة عظيمة وهذه الكتابات عبارة عن مئات من المجلّدات الضخمة الحزم الملفوفة والاوراق المنضّدة في أسفاط وقماطر لم يزل اكثرها مجهولاً فاحببنا ان نصف لقرّائنا اخص هذه الآثار ونتحفهم بشيء من شذراتها علّها تقع لديهم موقع القبول فإمّا ان تميط القناع عن امور خفية او انها تضيف افادات جديدة الى ما كان معروفًا

وقبل المباشرة بذلك لا نرى بُدًّا من ان نصدّر مقالتنا بكلام اجماليّ في هذه المكاتب ومحتوياتها الثمينة

٦ مكتبة السجلات في الوزارة الخارجيَّة .

هي اغنى مكاتب الوزارات الباريسيَّة بالآثار الشرقيَّة المستحدثة والكاتبات الرسميَّة . بيد ان الدخول اليها لا يخلو من مصاعب شتَّى ولا بُدَّ لذلك من رخصة خصوصيَّة يستمدُّها الطالب من وزير الخارجيَّة الذي يطرحها على لجنة سياسيَّة تبحث عن صوابيَّة الطلب واهليَّة الطالب ثمَّ تحيلهُ الى الوزير فيمنح الاجازة وفقًا لنتيجة البحث . وهنا ننتهز الفرصة لنشكر سعادة المسيو جيرار دي ريال (Girard de Rialle) ناظر هذه الكتابات سابقًا ومعتمد الجمهوريَّة الفرنسيَّة حالاً في الشيلي والمسيو لويس فارج (L. Farges) متولي ديوان السجلات القديمة في هذا القسم والاديبين الموسيو توسرا رادل (Tausserat-Radel) والمسيو ريغو (Rigault) وغيرهم على ما ابدوا لنا من اللطف والمجاملة مدَّة الاشهر الطويلة التي قضيناها في باريس لمطالعة هذه الآثار فقد ادّوا لنا من الخدم والتسهيلات ما جعلنا اسرى فضلهم

وممَّن حظينا هناك بمعرفتهم سعادة المسيو بوب (M. Aug. Boppe) قنصل دولة فرنسة حالاً في القدس الشريف وكان اذ ذاك ناظرًا على ديوان ترتيب السجلات فوجدنا منهُ رجلاً فاضلاً وعالمًا رصينًا جازتهُ دولتهُ برفع مقامهِ وكنَّا أوَّل من سبق فبشَّر اهل بلادنا بتعيينهِ الى هذا المنصب الرفيع وذكر محامدهِ في جريدة البشير

امَّا الاضابير التي تُحفظ في مكتب الوزارة الخارجيَّة فمدارها على الكتابات الرسميَّة التي تداولت بين فرنسة وغيرها من الدول ولا نذكر منها سوى ما تهمُّنا معرفتهُ. وهي تُقسم الى اقسام مختلفة يدعونها سلاسل (Séries)

١ سلسلة المعاريض والمذكَّرات (Documents et Mémoires)

تحتوي على مئات من المجلَّدات في علائق فرنسة مع بقيَّة الدول منها ٧٥ مجلَّدًا تحت عنوان « الدولة العثمانية وفرنسة » واكثر ما فيها من السجلات والكتابات مدارهُ على التجارة في بلاد الدولة العليَّة ومخابرات اصحاب الدولتين في ذلك . ولهذه السلسلة فهارس واسعة تسهّل التفتيش على الطالعين وتيسر لهم ادراك ضالتهم . ويا ليت بقيَّة السلاسل تُنظم على هذه الطريقة ايضًا فتغني الدارسين عن البحث الطويل واضاعة الوقت الثمين

٢ سلسلة الرسائل السياسيّة (Correspondance diplomatique)

ان القسم المختص بالدولة العليّة في هذه السلسلة لا يقلّ عن ٢٥٩ مجلّدًا ضخمًا مع مُلحق ذي ٣٢ مجلّدًا وكلها تتضمّن رسائل سفراء الدولة الفرنسويّة لدى الباب العالي الى ملوك فرنسة ووزرائها مع صورة الاجوبة عليها . وهذه السلسلة مع غنى موادّها وسعة فوائدها ينقصها رسائل عديدة في مجلّداتها الاولى فانّها تبتدئ بالقرن السادس عشر ولا تشمل الى غاية سنة ١٦٦٥ سوى عشرة مجلّدات . فيبقى ٢٨١ مجلّدًا للرسائل المسطّرة منذ ذلك العهد الى سنة ١٨٣٠

وبعض ما ينقص هذه السلسلة في اوائلها تجده في مكتبة باريس العموميّة كما سيأتي ذكره . وممّن استفادوا من هذه الاوراق المؤرّخ شاريار (Charrière) نشر منها قسمًا في المجموع المعروف « بنصوص مفيدة لتاريخ فرنسة » (Documents pour servir à l'Histoire de France) تشمل اربعة مجلّدات منهُ لكنّها وشلٌ من بحر . وفي هذه السلسلة من الدفائن الثمينة ما يزين الكاتب وينطق بلسان حاله عمّا كان من حسن العلائق بين الباب العالي والمملكة الفرنسيّة منها الخطوط الشريفة التي ارسلها السلاطين العظام الى ملوك فرنسة على قراطيس حريريّة فاخرة قد يبلغ طولها نحو الذراعين وهي موسومة بالطغراء الهمايونيّة ومكتوبة بالخطوط البديعة الرائعة . وكان بودّنا ان نرسم بالفوتوغرافية بعضًا من هذه الآثار الجليلة والتحف السنيّة لنزيّن بها صدر هذه المجلّة الّا ان الظروف حالت دون الرغائب . ومنها ايضًا رسائل لاحبار الكنائس الشرقيّة من بطاركة ومطارنة واساقفة وغيرهم من اصحاب البيوتات ومشاهير الرجال سنذكر منها طُرَفًا

٣ سلسلة الامور الدينيّة والرسائل الشرقيّة (Affaires religieuses et Mémoires du Levant)

وهي اضابير مودعة في ثماني قماطر (عُلَب) كبيرة طولها نحو الذراع في عرض ثلث الذراع كلّها ملأى من رسائل المرسلين وغيرهم مدارها على الامور الدينيّة في الشرق من السنة ١٦٤٥ الى السنة ١٨٠٦ وهذه الرسائل منضّدة بلا تجليد ولذلك لا يُسمح بمطالعتها الّا باذنٍ خاصّ من اللجنة الدوليّة وكذا قولهم بكل الاوراق المنثورة اي المتروكة بدون تجليد . وقد طالعناها

٦ سلسلة رسائل القناصل الفرنسيين (Correspondance consulaire)

ان ما يتعلّق بالشرق من هذه السلسلة موجود في قماطر كالموصوفة سابقاً تحتوي مكاتبات قناصل فرنسة الى حكومتهم وهذا جدولها :

اسماء القنصليَّات (ق) او نياباتها (ن)	بدء تاريخ الرسائل	عدد القماطر
حلب (ق) والاسكندرونة (ن) من سنة	١٦٨٥	٢٣
طرابلس (ق)	١٦٦٧	١٦
صيداء (ق)	١٦٧٠	٢٣
عكّاء (ن)	١٧٢٠	٠٩
بيروت (ن)	١٨٢٢	٠٢
القاهرة (ق)	١٦٦٩	١٦
الاسكندريّة (ن)	١٦٩٢	٢١

وآخر تاريخ هذه الرسائل سنة ١٨٣٠ لانَّ ما كتب بعد هذا العهد لا يُسمح بمطالعته

وفي خلال هذه السلاسل تجد ما يُدعى في الدوائر السياسيَّة بالارشادات (instructions) وهي تعليمات كتابيَّة مفصَّلة تُعطى للسفراء اذا ما أُنتدبوا الى منصب سياسي لدى الدول الاجنبيَّة من شأنها ان تفيدهم عن العلائق الكائنة بين دولة السفير والدولة التي يُرسل اليها مع بيان احوال تلك الدولة وطريقة سلوكه مع رجالها وما يُقتضى عليه مراعاتهُ او العدول عنهُ في معاملاته الرسميَّة والى هذه الارشادات يرجع السفير في معضلاته وفض مشاكله وكانت هذه الاشارات قديماً غاية في الخطر وعظم الشأن قبل اختراع التلغراف والسكك الحديديَّة لان السفير لم يكن ليستطيع ان يخابر دولتهُ بالسرعة المطلوبة فكان يستغني بهذه الارشادات ويجري على حسب نيَّات مرسليهِ ورغائبهم . والذي سلَّمتهُ الدولة الفرنسيَّة من هذا القبيل لمنصَّبيها لدى الباب العالي كثير في نشره فوائد جمّة لتاريخ الدولتين . وكان ممَّن تجرَّدوا لهذا الامر سعادة المسيو جيرار دي ريال المومأ اليه فأعدَّ للطبع قسماً من هذه الارشادات الّا انَّ ما نيط بهِ من المهامّ السياسيَّة لدى حكومة الشيلي ثبطهُ عن مواصلة عملهِ . وقد اعلمنا سعادتهُ في العام الماضي انهُ لم يعدل عن مقصودهِ بل هو مصمّم على اخراجهِ الى حيز العمل قريباً

٢ً مكتب سجلّات وزارة البحريّة

ان شؤون التجارة ومكاتبات القناصل كانت حتى اواخر القرن الثامن عشر منوطة في فرنسة بوزارة البحريّة ولذلك كان القناصل والعمّال يبعثون اليها بالرسائل والاعلامات المتعلّقة بامورهم التجاريّة وامور الذين يلوذون بهم. وكان الوزير بعد وقوفه عليها يعرضها على الملك فيعهد اليه الملك بالجواب. وكان الواجب ان تحفظ كل هذه الكتابات في محلّ واحد امّا في وزارة الخارجيّة التي قامت بعد ذاك مقام الوزارة البحريّة في علاقتها مع الشرق واما في وزارة البحريّة غير ان الذين تولّوا تنظيم هذه المخطوطات نقلوا رسائل القناصل الى وزارة الخارجيّة واودعوا مسودّات الاجوبة دار وزارة البحريّة وفرّقوها في سلاسل جمّة فقضت علينا الحال ان نطرق باب هذا المكتب لنبحث عن دفائنه. وممّن وجب علينا شكرهم المسيو دي نوفيل (de Neuville) الذي سهّل لنا تحصيل الاجازة من سعادة وزير البحريّة لاجل التنقيب في هذه الخزائن وكذلك المسيو فونتين (Fontayn) الكاتب الاوّل في هذا المكتب والمسيو بريسو (Brissot) متولّي حراسته

وقد اطّلعنا على سلسلتين من هذه السلاسل. احداهما موسومة بعلامة B^1 وليس فيها من الآثار الشرقيّة الّا النزر القليل. والثانية سلسلة B^7 وهي تحتوي على نيف و ٥٠٠ مجلّد او إضبارة فيها من الصُحُف والذنائل والمسودات ما يطول شرحهُ ولولا خبرة المسيو بريسو بمضامين هذه الاوراق المكردسة والافادات التي كنّا نتلقّاها منهُ يوميًّا لما وصلنا الى المطلوب فقد ارشدنا جنابهُ الى المواضع التي وجدنا فيها رسائل عزيزة الوجود ونصوصًا تاريخيّة مفيدة وغير ذلك ممّا نقلناهُ عن ستّين مجلّدًا او رزمةً من هذه السلسلة ولا نُرانا استوفينا مضامينها الشرقيّة. وهذه السلسلة الجزيلة الفائدة قد نُقلت آخرًا الى مكتب السجلّات الوطنيّة (Archives Nationales). وقد نُقل قسم من السلاسل الاخرى الى وزارة الخارجية. امّا نحن فسنذكرها في كلامنا بعنوانها القديم مكتفين بما تقدّم التنبيه اليه

٣ً مكتب سجلّات وزارة المستعمرات

قد دخل سهوًا في مكتب هذه الوزارة بعض آثار الشرق المسيحي كُتبت في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الثامن عشر وأُودعت في سلسلة حرف F بعنوان رسالات وامور دينيّة

٤ً مكتب السجلات الوطنيّة

في هذا المكتب اثمن السجلّات واقدمها تاريخًا واعلاها قدرًا الّا انها لا تحتوي من

امور الشرق الأ ما نُقل اليها من وزارة البحريّة كما ذكرنا وكذلك تجد في السلسلة المُعلمة بحرف K اوراقاً لسفير فرنسة في الاستانة المركيز دي بوناك من السنة ١٧١٦ الى ١٧٢٥ وفي سلسلة L رسائل بعث بها المرسلون في حلب (سنة ١٦٥٥—١٦٥٧) كانت سابقاً في مكاتب رهبان الكرمل فاستنسخناها

• المكتبة العمومية

تحتوي على مجموع ثمين في ثلاثين مجلّداً للسفير دي سيزي (de Césy) المتولي شؤون السفارة الفرنسيّة في الاستانة منذ سنة ١٦٢٠ . وهذه الكتابات غاية في الاهميّة ومن شاء البحث المدقّق عن احوال البطريركيّة القسطنطينيّة واخبار كيرلس لوكاري لا يستغني عن مطالعتها

وفيها ايضاً كتابات للسفير دي جيراردين (de Girardin) تشتمل على اهمّ ما حدث لهُ في عهد سفارته مع الرسائل الواردة اليه من حكومته

وفيها ايضاً غير ذلك مما يطول هنا شرحهُ . الّا ان المخطوطات العربيّة والسريانيّة المتعلّقة بتاريخ الشرق المسيحي في هذه القرون الاخيرة هي قليلة متفرّقة

وبعد هذه المقدّمات لا نرى بُدّاً من ايضاح ما نحن فيه من الارتباك فقد كنّا نودّ كشف هذه الخبايا وفتح كنوزها الدفينة ونشر قسم من هذه الرُقات . الّا ان ضيق الصفحات في هذه المجلّة مع ما هناك من ظروف المكان والزمان كل ذلك يحوجنا الى ان نكتفي بشذرات طفيفة وبعض طُرَف من رسائل بطاركة واساقفة وقناصل موردين لها على لفظها ما امكن دون ان نتعرّض لمضمونها سلباً او ايجاباً بل نترك فيها الحكم للقارئ اللبيب

ونجعل بداية كلامنا من السنة ١٦٢٠ وفيها تبتدئ اهم المخطوطات الباريسيّة التي نحن في صددها . ولا نجهل انَّ في مكاتب رومية العظمى ما سبق هذا التاريخ وفي يدنا من هذه الآثار شيء كثير من اخبار القسم الثاني من القرن السادس عشر واوائل السابع عشر نخصّ منهُ بالذكر رسالات الاب يوحنّا اليانو (جوان باتشتا) اليسوعي الى الاقباط والموارنة وغيرهم مما يملأ مئات من الصفحات فنضرب الآن الصفح عنها الى ان تُسعفنا الظروف على نشرها . ونفتتح مقالتنا برسالة للبطريرك مكاريوس الذي مرَّ في المشرق وصف رحلته الى البلاد المسيحية (المشرق ٥ : ١٠٠٩) ولو تأخّرت

عن تاريخ سنة ١٦٢٠ لأن المثل بالمثل يُذكر ثمَّ نعود الى السنة التي جملناها مفتتحاً لآثارنا. وهذه الرسالة كتبها البطريرك المشار اليه سنة ١٦٦٣ الى ملك فرنسة لويس الرابع عشر. وهي مصونة في كتابات وزارة الخارجيَّة في الصفحة ٨٠ من المجلَّد الثامن من سلسلة العلاقات السياسيَّة مع الدولة العليَّة . . . (لها بقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

ابن رشد وفلسفتهُ

تأليف فرح انطون منشئ مجلَّة الجامعة ١٩٠٣ (ص ٢٢٧)

كتب فرح افندي انطون في مجلَّة الجامعة فصلًا في ترجمة ابن رشد نشأ بسببهِ جدال بينهُ وبين المنار (المصري) فافرد هذا التأليف للردّ على المنار غير انَّهُ تتبَّع في أكثر اقوالهِ مزاعم رنان بكتابهِ المعنون Averroès et l'Averroïsme ولم يكتفِ بذلك بل تأثَّر هذا الجاحد في ما لهُ من المطاعن في سائر مصنَّفاتهِ بالسيد المسيح

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينهِ فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

فبناء عليهِ لا يعجب المطالع اذا رأى في هذا التأليف من المزاعم ما لا يسلّم بهِ مسيحي كقولهِ (في الصفحة ١٨٩و١٩١): «انَّ علماء النصارى وعقلاءهم (زهٔ زهٔ) لا يعتقدون بلاهوت السيّد المسيح ابن الله الحيّ الَّا بالمجاز» وانَّ «مسألة التثليث في الاقانيم مسألة شعريَّة (!!!) تصوّريَّة». فأيم الله إن كان هذا معتقد صاحب الجامعة فليرضَ بهِ هو وأمثالهُ من الملحدين امَّا نحن وكلّ من يدين بالنصرانيَّة فقد تعلَّمنا غير ذلك من انجيل الربّ وتعليم الكنيسة وقد افادنا الرسول (غلاطية ١: ٨): «ان بشَّركم احد ولو ملاك من السماء بخلاف ما بشَّرناكم فليكن مُبسَلًا» فنؤمن بانَّ المسيح لذكرهِ السجود هو الله وابن الله حقيقةً لا مجازًا وانَّ تثليث الاقانيم عقيدة جوهريَّة ليس فيها شيء من التصوُّر والخيال هذا ايماننا وفيهِ نحيا وعليهِ نموت ولو احصانا صاحب الجامعة في عداد الجهلاء.

Histoire du Commerce français dans le Levant au XVII[e] siècle

par Paul Masson. Paris. Hachette pp, 533

تاريخ التجارة الفرنسيَّة في الشرق في القرن السابع عشر

اهدت الينا مكتبة هاشيت الشهيرة كتابًا نفيسًا للكاتب المدقق بولس ماسون بيَّن فيه تاريخ التجارة الفرنسية مع البلدان الشرقيَّة في القرن السابع عشر نقلًا عن السجلَّات والرسائل المحتفظة في خزائن الوزارات في باريس فأتيناه تأليفًا معتبرًا مملوءًا من نوادر المقتبسات والمنتخبات التجاريَّة الجزيلة الفائدة وان شاء الله نتحف القرَّاء بشذرات منهُ اذا سنحت لنا الفرصة لنظهر لهم عظيم فائدته مكتفين اليوم بالاشارة. امَّا المؤلف فهو ممَّن يوثق بصدق نقاليه معروف بجدِّه في التنقيب يراهُ من يدخل المكاتب الباريسيَّة منصبًا على المطالعة لا يأخذهُ في شغله ملل. وفي عزمهِ ان ينشر قريبًا في قسم ثان تاريخ تجارة دولته في الشرق مدة القرن الثامن عشر تتمَّةً للفائدة فنشكر لهُ ولاصحاب مكتبة هاشيت هديَّتهم ونتمنَّى للكتاب رواجًا الاب ا. رباط

Expédition des Almogavares en Orient (1302-1311)

المغاورون في الشرق

par G. Schlumberger. Paris. Plon. in-8, IV-396

قد افادنا صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٣٨ و١٤٩ و ١٦٧ من طبعة الاب لويس شيخو) عن الكتلان وما كان بينهم وبين المسلمين من روابط الولاء. والكتلان ويُدعَون ايضًا المغاورين (Almogavares) غزاة كانوا يخوضون البحار ويشنُّون فيها الغارات. ومن غزواتهم غزوة شهيرة اصابوا فيها الغنائم العظمى جرت سنة ١٣٠٢ فدخلوا بلاد الروم ونهبوا مدنهم الساحليَّة واستولوا على قسم من اليونان اتَّخذوها كاقطاع وانشأوا لهم فيها دوقيَّةً سنة ١٣١١. فهذه الغزوة قد وصفها كاتب بارع من الاكاديمية الفرنسويَّة غوستاف شلومبرجر الذي ذكر المشرق (٥ : ١٠٠٣) آخرًا احد تآليفهِ الحديثة في ترجمة بطل من ابطال فرنسة ارنلد دي شاتيليون وفي هذا التأليف الجديد برهان ناطق عن تفنّن الكاتب وحسن انتقائهِ للمواضيع وسعة معارفهِ وانسجام عبارتهِ وسبك معانيهِ حتى ان قارئ هذا الكتاب لا ينظر في مقدمتهِ حتى يندفع الى مواصلة المطالعة رغبةً منهُ للوقوف على اخبار هؤلاء المغاورين فترى الكتاب اشبه برواية خياليَّة ذات وقائع غريبة مع كثرة التنقل في الاحوال المتباينة الاب ف. بوقيه

شذرات

كتابة عربيّة باللغة النبطيّة ذكرنا سابقاً (في المشرق ٤ : ٣٢٩) رحلة الموسيو دوسو الى الصفا وما وجدهُ هناك من الآثار المجهولة منها كتابات متعدّدة باليونانيّة والنبطيّة والعربيّة. فلمّا عاد الى باريس فحص الكتابات النبطيّة فحصاً مدقّقاً فوجد بينها كتابة عربيّة مكتوبة بالحرف النبطي اكتشفها في بادية حرَّة في وادي السرط على مسافة كيلو متر من النمارة في جنوبيها الشرقي وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبُصرى التي توافق سنة ٣٢٨ للمسيح فتكون اقدم كتابة عربيّة معروفة الآن (راجع المشرق ٥ : ٨١٦). ولهذا الاثر الفريد اهميّة كبيرة لتعريف اصول الخط الكوفي ولاخبار عرب الشام وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة احد ملوكهم يدعى امرء القيس بن عمرو ملك بني اسد ونزار احد عُمّال القياصرة في بادية الشام. امّا لغة هذه الكتابة فليست فصيحة فيها مسحةٌ من النبطيّة هذا اولها: « تي نفسُ (هذا قبر) امرء القيس برْ (بن) عمرو ملك العرب كلّه ذو (الذي) أسَرَ التاج وملك الاسدين ونزارو وملوكهم الخ » والعلماء لم يحلُّوا حتى الآن كل مشكلات هذه الكتابة. ولعلّنا نعود اليها مرَّةً أُخرى

لطيفة في آخر هذا الشهر عيد احد اولياء الله القديس فرنسيس دي سال اسقف سابوديا. فاحب جناب الاستاذ يوسف ابي سليمان ان يصنّف هذه الارجوزة اودعها فكاهةً من ترجمة حياتهِ

صلاة الفلّاح

انَّ شُرود العقل في الصلاةِ ... لآفـةُ الانسان في الحياةِ
قد اخبر الراوي عن أفرنسيسِ ... دي سالسَ المطران والقديسِ
اذ كان يوماً يسالكُ الطريقا ... وافاهُ فلّاحٌ غدا الرفيقا
ما طويَا من المدى قليلَا ... حتّى اغتدى كلاهما خليلَا
فخاطب القديسُ هذا الساري ... وجعلَ الموضوعَ حُبَّ الباري
رجاءَ ان يجديَهُ إفادهْ ... في منهجِ الايمان والعبادهْ
قال لهُ في معرض الكلامِ ... أتحبُّ خالقَ الانامِ
فجاوب الفلّاح « يا لطيفْ » ... أعنهُ اسلو وَهوَ بي رؤوفْ
أُحبُّهُ محبةً شبّـهْ ... في ذكرهِ لي لذةٌ شهيّهْ

فاسترسل القديس ثم قالا · أفي الصلاة تطلب الكمالا
ألا تميلُ في الدعا للسهوِ · ألا تكون ابدًا في لَهْوِ
فشفنَ الفلّاحُ إفرنسيا · وهاكم جوابَهُ النفيسا
في طول عمري لم أُطِع خنّاسا · وفي صلاتي لم أرَ الوسواسا
فلاح القديس انْ الراحلْ · لمنهج الصلاة حقًا جاهلْ
واثر الامرُ بهِ تأثيرًا · ورام ان يبيانهُ تنويرا
وقال ان صدقتَ فيما قلتا · فاصبر عليَّ واستمع لي وقتا
هل لك ان تُصلّيَ (الابانا) · من غير ان تشتت الجنانا
اذا فعلتَ نلتَ ذا الحوادا · وكان ما تقولُهُ السَّدادا
ها قد بدا صاحبنا يقولُ · صلاتَهُ وقلبهُ مشغولُ
لكنَّهُ ما قالَ منها النصفا · حتَّى انتهى ورامَ عنها وقفا
فكرٌ أتى لقلبهِ فتأنّا · في انَّهُ سيملكُ الحصانا
وقالَ للقديس ذا أتكلاما · هل معهُ تعطيني اللجاما
فجاوب القديسُ ثمَّ قالا · لا ذا ولا هذاك تحسن نالا
إذ في الصلاة قد اتيتَ السهوا · ولا جزا لمن يجيءُ اللهوا
فاحمرَّ من خجلهِ الفلّاحْ · وقالَ قد بانَ ليَ الصلاحُ
حقًا شرود العقل في الصلاةْ · لآفةُ المرءِ بذي الحياةْ

أسئلة وأجوبة

س ورد في مجلة المشرق (٥ : ١٠٤٢) في مقالة الاديار القديمة في كسروان لحضرة الاب الفاضل الخوري ابراهيم حرفوش سؤال ترك الجزم بهِ لارباب البحث وهو: «هل الدهن بالزيت بدعة وهل في الصلوة الموردة اعلاه ما يشير الى شيء من البدعة» فتطفلت بالجواب راجيًا ادراج كلامنا في مجلتكم الغرّاء في باب الشذرات والاسئلة

الدهن بالزيت يوم خميس الاسرار

ج نجيب (اولًا) ان الدهن بالزيت يوم خميس الاسرار في الغسل ليس ببدعة مطلقًا بل هو طقس شرقي ويظهر انهُ قديم العهد وحتى الآن تستعملهُ الكنيسة الارمنية ما خلا قسم منها. وعلى ظني ان اليعاقبة يستعملونهُ ايضًا وهــذا الدهن تذكار للطيب الذي اراقتهُ مريم المجدلية على اقدام المخلص كما يستنتج وضعيًا من الصلوة الارمنية التي تُتلى على الزيت في مثل هــذا اليوم. (ثانيًا) ان الصلوة السريانية التي اوردها صاحب المقالة لا يوجد فيها لفظة تشير الى بدعة او تمسُّ عقائد وآراء الكنيسة بشيء فما الداعي اذن الذي حمل المطران جرمانوس الى هذا الحكم بقولهِ: «لا يجوز الدهن في

الزيت لان ذلك بدعة يستعملها تباع ديوسقورس فقط »

عندنا ان ما حمل المطران على هذا القول هو نفس المبدأ الذي تبعهُ بعض المرسلين في الشرق الذين كانوا يجهلون احيانًا لغة الشرقيين وعوائدهم فكل طقس شرقي عويص المعنى او الاصل او يختلف عن طقوس الغربية اختلافًا كليًا كانوا ينسبونهُ الى البدعة. وكذلك حكم بعض الاكليروس الشرقي الذي لم يسعدهُ الحظ بالبحث والتفتيش عن طقوسنا القديمة. اقول (ثالثًا) لعلَّ المطران جرمانوس سمع من البعض كلامًا او زعمًا بخصوص هذا الطقس يُشتمّ منهُ رائحة الهرطقة فحكم بما حكم وبَنى حكمه خاصةً اذ ذكر ان بعض الارمن غير الكاثوليك كانوا يزعمون او يقولون ان مسحة الزيت يوم الخميس تقوم مقام المسحة الاخيرة وهو رأي باطل كما لا يخفى. او لعلَّ المطران جرمانوس رأى العادة المألوفة في الكنيسة اليونانية التي تقوم بالطقس المذكور يوم خميس الاسرار آونة غسل الارجل فدعاهُ ذلك الى الارتياب في سلامة الطقس الذي نحن في صدده عن شائبة البدعة

ولكن كان ينبغي للمطران جرمانوس ان يتحقَّق الحقيقة ويفحصها قبل ان يفتي جزافًا بحق طقس شرقي قديم استعملتهُ كنيستهُ المارونية (دير نرسيس صانغيان الارمني)

س وسُئلنا هل يجوز للكاهن الشرقي ان يمنح سرَّ التوبة في بيت رجلٍ من غير طقسهِ. وهل الحالة ثابتة اذا منحها المعترف

سرّ التوبة

ج لم نجد في هذا الامر جوابًا صريحًا في الحقِّ القانونيّ المخصوص بالشرقيين. ولكنَّا نظنّ ان الحلَّة ثابتة وان كان الكاهن يُخطئ بتصرفهِ بدون رخصة اسقف الطائفة او نائبهِ ما لم يكن الامر جاريًا كعادة مألوفة بين الطوائف الكاثوليكية

سأل ج. س احد كهنة الموارنة الأفاضل: ١ أيحقُّ في عيد الميلاد لكلّ من كهنة اللاتين ان يقدّسوا التقداسات الثلاث او لواحد منهم فقط. ٢ وهل يُسمح بذلك لكهنة الطقس الشرقيّ. ٣ ايجوز للكاهن الشرقيّ ان يقدس بلا تلاوة رسائل القديس بولس

جواب على سؤالات في الطقوس

ج نجيب (على الأول) انَّ قدّاسات عيد الميلاد الثلاث مسموح بها لكلّ كاهن لاتينيّ لكنَّها ليست مفروضة. وعلى (الثاني) انَّ الكاهن الشرقيّ لا يستطيع دون اذن المجمع المقدَّس ان يقيم هذه القداسات الثلاث. وعلى (الثالث) ان تلاوة

رسائل القديس بولس ... في القداس لا يجوز ان يهملها الكاهن ما امكنهُ

س عاد شكري افندي ... اري بالنسبة الى المتر لانهُ وجد جوابنا بكون الذراع يساوي ٧٠ سنتيمترًا وثلث ... الاذرعة التي قاسها

الذراع للتجار

ج نجيب اجمالًا على انَّ الذراع المعوَّل عليها في ... الك العثمانيَّة والمضبوطة غاية الضبط هي الذراع المعماريَّة التي طولها ٧٥ سنتيمترًا بنيف قليل يبلغ ٧ مليمترات. أمَّا الذراع التجاريَّة فنجد في تعريف قياسها بعض اختلاف فان تقويم هاشت مثلًا يجعلها ٦٧ سنتيمترًا بلا كسر. ومنهم من يزيد ومنهم من ينقص. وقال في دليل ايزامبرت: انَّ الذراع تختلف بين ٦٦ سنتيمترًا و٧٠ س في الدولة العليَّة. والظاهر انَّ ذراع بيروت تساوي ٦٨ س ونصف

س وسأل من حلب احد كتبتها: ١ً هل يمكن أن تكتسب في يوم واحد ... رين متعددة ان اتمَّ الراجع شروطها. ٢ً ان كان غفران واحد يفي تمامًا عن دين احدى الانفس المطهريَّة فالفائدة من تعداد الغفرانات. ٣ً وكذلك لماذا تقدَّم قدَّاسات كثيرة لاسعاف هذه النفوس اذا كانت ذبيحة واحد كافية لخلاصهنَّ جميعًا بصفة كونها غير متناهية

الغفارين وربحها

ج الغفارين نعم روحيَّة تمنحها الكنيسة لما أُعطي لها من السلطان للربط والحلّ في السماء كما في الارض ولانها نالت من مراحمه تعالى مقاليد ملكوت السماوات. امَّا الجواب عن الاسئلة فنجيب عن (الاوَّل) انهُ يمكن ان تُربَح في يوم واحد غفارين متعددة اذا اتمَّ المؤمن الشروط المفروضة لربحها ولكن هذه الغفارين لا تزيد المؤمن برارة اذا كانت نفسهُ طاهرة وانَّما الاعمال المنجزة لربحها تزيدهُ ثوابًا وكذلك يمكنهُ ان يخصص الغفارين على نيَّة النفوس المطهريَّة. ونجيب على (الثاني) انَّ الغفران الكامل الواحد كافٍ لخلاص نفس من النفوس المطهريَّة في ذاته لكنَّنا لا نعلم ما يمنحهُ الله في حكمتهِ وعدله من هذه النعم لانهُ عزَّ وجلَّ حرٌّ في عمله يخصص من هذه الغفارين ما شاء ولخلاص من يشاء حسب ارادتهِ وقضائهِ. وكذا قُل عن الذبيحة الالهيَّة التي لها في ذاتها قدرٌ لا ينتهي لكنَّهُ تعالى يستجيب دعاء كنيسته على حدٍّ يرضى هو بهِ ولا يتجاوزهُ حسب قضائهِ. وبعبارة أُخرى انَّ الذبيحة غير متناهية في ذاتها لكن تخصيص نعمها منوط بمشيئة الله

ل. ش